رواية

المرتد

و

"سيد الملائكة"

كرم صابر



مركز المحروسة

" المرتد "

و

" سيد الملائكة "

رواية

كرم صابر

عنوان الرواية: المرتد وسيد الملائكة

المؤلف: كرم صابر

الغلاف: رشا عبد الله

مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات

قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش٩ – المقطم- القاهرة

ت.ف: ٠٠٢-٠٢-٢٥٠٧٥٩١٧

ww.mahrousaeg.com

e-mail: info@mahrousaeg.com

e-mail: mahrousacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

الطبعة الأولى : فبراير ٢٠١٤

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٧٥٩٥

الترقيم الدولى: ٧-٥٢٨-٢١٣-٩٧٧-٩٧٨

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ، نشر العديد من الأعمال السردية منها: المتهم ، وأين الله ، ورائحة الأنوثة ، وعشق الحياة ، وأولاد المدينة ، وطائر النسيان ، ومريم العذراء ، وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

إهداء

إلى زرعي الأخضر المدهوس:

"مروان وشادى"

" يمامة "

استيقظتُ هذا الصباح على تغريد العصافير ونور وجهها الملائكي ، قبلتني وسَرَتْ مياهها في عروقي ، فتحت عيوني على زرقة السماء ودخلت فضاء البلكونة كي يتدفق الحب في قلبي.

ضغطتُ على الجهاز لتنطلق موسيقى الأزهار ، وغردتُ كيمامة لأغتسل وأدخل حجرتي لأتابع الشخصيات التي هيمنت على عقلي وتطاردني.

مرتْ من أمامي بملابسها الداخلية وجسمها النضر وشعرتُ بما يدور في داخلي ، اقتربتْ ولفتني في جسدها وتمرغتْ على صدري ، ملّست على رأسي ، فولدت من جديد.

لا أدري ماذا أقول عن علاقتنا الطويلة؟ فروحي مرتبطة بهذه المرأة ، أستمد من نورها الأمل ، ولا يمكنني العيش دون وجودها.

تركتُ عملي وأهلي من أجل مرافقتها ، أعطيتها كل ما أملك لتدير حياتي ، واظبتُ برقة على ري زهوري ، رتبتُ حياتي بين الكتابة وزيارة الحدائق والبحر ، ولا أدري كيف تُنفّذ بتلقائية كل ما أحتاجه دون سؤالي؟

حينما تنظر في عيوني تطهّرني وتزرع في أعماقي السعادة ، أشعر بالامتنان ، كأنها خُلقت لإرضائي.

يا أﷲ ... بماذا يمكن تسمية ما بيننا؟

لملمتِ المتبقي من سهرة الأمس ، وارتدت ملابسها وقالت : " هعدي على المكتبة وهسيبك مع أبطالك ، هندخل الليلة فيلم ديفيد هنري ".

نظرت بغرابة إلى وجهي المحايد واستكملت : " حجزت تذكرتين بحفلة تسعة ، مش هتتأخر ".

أغلقتْ الباب وراءها وخرجت ، كنت مترددًا بين دخول عالمي المملوء بشخصيات مجنونة ونزقة ومعتادة على الإجرام أو الخروج لفضاء المدينة.

لا أعرف كيف سأسجل كل هذا الشر ، لكن المشاهد التي تجرى بين الأبطال وتسلسل الأحداث الكامن في عقلي يلاحقني ، كأن بأعماقي بئرًا مملوءة بالثعابين ويحتاج تفريغها إلى ممر واسع حتى لا تأكل خلايا رأسي.

كانت لحظة عصيبة ، ترجلتُ ببطء وتردد ، حتى وصلت إلى المكتب وفتحتُ الصفحة الأولى ، وكتبت " حسرة ".

" مقتول "

اسمى "مينا" وجزائى أني ولدت في حى لا يعرف معنى الحب ، الجميع يتوعدنى بالقتل ، فقدت حكمي وتقديري على الأمور ولا أستطيع الآن مواجهة كل هذا التهديد.

طوال الليل أسمع أصواتهم ، وأخشى من النور حتى لا يروا وجهى ، فيطلقوا رصاصهم المصبوب فى قلبى.

أعرف أن دمى رخيص وأن وجودى بلا ثمن ، كل شىء مُباح ، فقدوا الرادع والمرجعية ، وفتحوا قلبى ونهشوا صدرى وأصبحت أحلامى متاحة للجميع.

الكل عاث في ذاكرتى وخصوصيتى ببهجة ، متبرئًا من أفعالي ووجودى.

تركتنى زوجتى وأولادى وذهبوا إلى بيت أهلها كى يرثونى حيًا ، يهددونى كل يوم لأتنازل عن المنزل والقيراطين اللذين ورثتهما عن والدى.

أتمنى إعطاءهم كل شىء ، لكنى أخاف عليهم من الأسواق ، فتجار الأراضي سيقتلوهم ويأخذون الأرض بلا ثمن.

بعد هجرتهم تلقيت رسائل التهديد والوعيد ، " حان يومك الأخير يا ديوث " ، " لا تخرج إلى الشارع لأنك ستموت كالفأر " ، " نحن أبناؤك الذين قرروا قتلك ، فقل لنا ماذا ستفعل يا كلب ".

الرعب يتجمع حولى ، وأنا أضع المفتاح في القفل غالقًا الباب ، الخوف يهيمن على السماء والأرض ويدخل تحت البطاطين وبضلف الدواليب.

أغلق الشبابيك والبلكونات وحنفية الحوض ، متصورًا دخولهم الشقة من مواسير الصرف ليغتالونى.

أنظر بأسى إلى الحائط المظلم ، كأننى أنتظر الطعنة من الشعاع المنبعث من لمبة الكهرباء المعلقة بمنتصف السقف ، يمكنهم فعل ذلك وأكثر ، سوف يدخلون ليلاً بالحبال ويعلقوننى كالذبيحة ويتركوننى أترنح كالعجل ، كأننى منتحر ، يا إلهي كيف دخل الرعب مرة واحدة إلى قلبى وتملكنى؟

لن يتأسّوا لدموعي ، سيواصل أخي عمله ليكتف يدي من الخلف ويرفع نسيبي جثتي ليعلق رقبتي في الهلب المتدلي.

ستقف زوجتي عند مدخل الحجرة وتقول بتشفٍ : " تستاهل الحرق يا خسيس! "

حواسي كلها تستعد لتلقي الطعنة ، من أنتم؟ وكيف دخلتهم وهيمنتم عليّ دون الاعتداد بخصوصيتي؟

أترك الحجرة وأترجّل في الشقة ، أنظر بين الملابس المكومة في الحمام ، أبحث عنهم بين الأطباق والملاعق وداخل أدراج الثلاجة ، أنتقل في الحجرات ، وأقول لنفسي : " علّهم يختبئون داخل الأحذية! "

الإشارات كلها تتضافر لتتحول إلى مؤشر للرعب ، دبيب الجيران خلف الحوائط وصوت السيارات في الشارع وهمس النمل والصراصير أسفل الجدران يخترق أذني ، العلامات كلها تتجمع لتدهس روحي وتسعى لانكساري.

سيدخلون الشقة في أي وقت ويأخذون العفش ويطعنون قلبي بالسكاكين ويغادرون في سعادة بعد غلق الباب في هدوء ، لا ، سوف يرسلون الضباط بعد رشوتهم ليقبضوا عليّ بتهمة الاتجار في المخدرات أو السلاح ، فالقسم مملوء بالأحراز ومن السهل تلفيق مثل هذه القضايا.

سوف يقنعون صاحب المصنع بإجرامي لطردي من العمل ، سيسعد زملائي بقراره ويباركونه لأنني تمكنت على غير رغبتهم من النجاح والفوز بالحافز ، وحينما أخرج من بوابة العمل مطرودًا بسبب وشايتهم سيقفون في الشارع وينظرون في وجهي بغضب ويتوعدوني بالقتل.

لا لن يقوموا بأنفسهم بسفك دمي ، سيكروا البلطجية ليطعنوني مدعين أنني قمت باغتصاب ابنة أحدهم.

حينما سمعت أذان الفجر وبدا النور يزحف من خلف شيش البلكونة ، أغلقت عيني وطارت روحي إلى بلاد بعيدة.

" براح "

عندما أضيئ النور معلنًا انتهاء الفيلم ترقرقت دموعها على خدودها ، مسحتها برقة ودفأتها بحضني، أخذت يديها وترجلنا السلالم في صمت ، وحين خرجنا إلى الشارع ، نظرت في عيني قائلة : " ملعون أبوها حياة ".

لم أرد ورفعت عيني للسماء وتأملت النجوم التى تحيط ببعضها لتشكل دوائر تبث النور في ظلام الكون.

دعتني ملامح بطل الفيلم إلى السكون ، أحسست بالذنب لوجود بشر حتى ولو "متخيلين" يمكنهم التضحية بأنفسهم من أجل إيمانهم بحياة الآخرين.

تحول البطل إلى يمامة وألقى بسلات الفل على وجه حبيبته ، وطار فوق رأسها وخطفها من الخراب ، وحين غرقت سفينتها تحول إلى سمكة وانتشلها من الغرق ، دفع حياته ثمنًا كى تنعم بالسلام.

كنت أعلم أن "حياة " تفعل ذلك من أجلى ، وترفض تصدير هذا الإحساس إلى قلبى حتى لا تجرحني ، دائمًا ما رددت بخلوتنا : " يكفينى النوم برفقتك تحت سقف واحد ".

كان السر في الفيلم يكمن في الترابط الروحى بين البشر ، وكيف نَقَعُ أسرى هذه الفكرة دون أن ندرى ، ومهما فعلنا فإن أرواحنا التى ارتبطنا بها وولدنا لمرافقتها لا يمكن أن نخرج من محيطها مهما فعلنا ، وتكمن سعادتنا في خدمتها حتى لو كانت جاحدة ولا تحس بما نقدمه من عطاء.

كررت جملة البطل الأخيرة التي كانت بمثابة النهاية قائلة : " نعم في الرحلة سنفاجأ بلحظات باهرة ، لن نتوقف عندها كثيرًا ، لكنها تعلمنا بكل قسوة كيف يكون الرحيل ، وعندما نعتاده يصبح حلمًا بعيد المنال ".

غيرتْ بمهارة مجرى الحديث قائلة : " سنأكل طبق الكاتا التى تحبه الليلة ، جهزت كل شىء لإعداده " ، أخذتنى من يدى ودخلت سيارتها وطارت إلى المنزل كأنها ذاهبة إلى الجنة.

حينما دخلنا باب الشقة أدارت اللاب على موسيقى " الحدائق " وفتحت المطبخ وتركتنى بالصالة حتى تنتهى من إعداد الطعام.

رغم أن شخصيات الرواية تأتيني وتذهب ، لكن نور عيونها الدافئ يخرجني من جنون أصواتهم وصورهم وهم يستمتعون بطعم الدم.

أعدت السفرة الصغيرة ، وطالبتني بارتداء ملابسي كاملة ودخلت حجرتها وارتدت فستانها الأبيض وأخذتني من يدي كأننا مدعوون إلى حفل عشاء في فندق النهر العائم.

جلست على الترابيزة ودعتني للجلوس أمامها في بهو الملائكة ، المناديل موضوعة تحت الملاعق ، الأطباق مرصوصة بانتظام أمامنا ، روائح البنفسج والفل تعبئ المكان ، وقبل أن ينطق لساني قالت : " هنتعشى النهاردة في بهو الربوة فأهلاً بك يا سيد الملائكة! "

تحدثتْ عن عملها في الجامعة وسعادتها وسط الطلاب ، غردت كحورية تعشق الملك المتوج قائلة : " لن تنام أو تهرب مع أبطالك ، هنسهر للصبح ".

حينما انتهينا من تناول الطعام ، طالبتني بخلع ملابسي وارتداء البيجامة التي جلبتها في عيد الحب ، دخلت حجرتها وارتدت قميصها الأبيض ، فظهرت مفاتنها المتناسقة في براءة.

جهزت خطة العشق الإلهي على خلفية موسيقى "البنفسج" وانطلقت أرواحنا في الفضاء تبحث عن البراءة ، جلسنا على كنبة الأنتريه متلاصقين نتأمل رحيق الموسيقي ، وفجأة دخلت في جسدي وأخلعتني ملابسي قطعة قطعة وطالبتني بنفس الفعل ، وحين أصبحنا عرايا همست في أذني قائلة : " روحي ".

وضعتُ يدي على صدرها النابض ، وسرحت بأطراف أصابعي على باقي جسدها وهي تتأوى في سعادة وتسبح .

اقتربتُ أكثر من وجهها منتشيًا بأعماقها ، اندمجتْ أرواحنا في الفضاء ، وطرنا وسط النجوم في رحلة استغرقت الليل كله ، حينما صحوت قرب المساء في اليوم التالي وجدت نفسي ملفوفًا على الكنبة في ملاءتها الفضية فشعرت كأني في بيت الرب.

استيقظت قبلي كعادتها وجهزت الطعام ، جلسنا كطيف سري حول الترابيزة وتناولنا الجبن والخبز في صمت.

وقفت أمامي بجسدها النضر وجمعت بقايا الطعام ودفعتني في رقة بمؤخرتها ، فاستيقظت جوارحي لتشعر بجسدها البض ، تململتُ خلفها ملقيًا بقايا الطعام في السلة ، وانتهيت من عملي مندهشًا من وجود حورية في حياتي.

أوشك النهار على الانتهاء ، فسمعتها تغرد قائلة : " الليل ملكك يا سيد الملائكة ، سأنام بصحبة رفاقي لألحق بعملي في الصباح " ، واستكملتْ : " لستُ عاطلة مثلك فلي طلابٌ ينتظروني".

قبّلت شفتي وتركتني أسير الأحداث التي ستدمر عقلي .

" مرتد "

عندما ذهبت إلى الموت ، قالوا تَراجعْ فالبيوت مازالت مبنية ، استكملتُ سيرى راغبًا في احتضان المدافن ، رأيتهم جميعًا هناك ، سحبونى بغدر ليأخذوا روحى قائلين : " ستنام أخيرًا آمنًا ".

لكن النوم لا يأتى فى عينى إلا بعد الفجر ، الليل مرعب في هذا الحى ولا شىء يوازيه سوى استقبال الحياة ، حرمونى لحظة صفاء في حضن أولادى ، ليس لشىء إلا لأننى قررت طلاق "ألطاف".

تعرفون أن ديننا لا يفرق بين الرجل وزوجته باسم الرباط المقدس ، وعندما استحالت حياتى معها ، نصحنى أحد الجيران بتغيير دينى كى أتمكن من تطليقها ، فرجال المسلمين وحدهم هم الذين يمكنهم ترك نسائهم في أى وقت.

لم أتوانَ وذهبت إلى دار الفتوى مستخرجًا شهادة ميلاد جديدة ، وغيروا اسمى من "مينا" إلى "محمد" ، وطالبنى الشيخ باختيار اسم مركب ، قلت أقتراح فكتبني "محمد أحمد مصطفى محمود" حتى لا يظهر اسم أبى "صموئيل" في البطاقة ، ونمت بالمسجد حتى تسليمى أوراقى الثبوتية الجديدة.

وحينما شاهدت بطاقتى مكتوبًا فيها "مسلم" ، ذهبت إلى المأذون وطلقتها كى أرتاح من عويلها كل صباح.

لكن الأمر ليس هينًا ، فرغم أنى تركت المنزل ، لكنهم طاردونى في شقتي الجديدة وأطلقوا ورائى البلطجية ، كى يغتالوني ، لدرجة أن فرسان الصليب التابعين للكنيسة ، بعثوا برسائلهم لأعود إلى دينهم والا اغتالوني.

قابلنى أخى "هدهد" منذ أيام وهددنى بالقتل لأننى عار ، ولم يتفهم مرادى ، ونهرنى قائلا : " طيب ارجع لدينك وغير الملة وارفع القضية واطلب الطلاق ".

وأرسلنى إلى كنيسة الروم وسلم أخى للمحامى العربون كى يستكمل الإجراءات للحصول على غايتى.

ذهبتُ للكنيسة وجلستُ مع القس واعترفتُ بخطيئتى وطلبت منه إعادتى إلى دين أهلى ، فنادى على الشماس الذى قام بعمل الإجراءات وأعادنى للمسيحية ، ومرة أخرى أصبحت " مينا صمونيل مرقص حبيب ".

وعندما علم شيخ الجامع الذى آواني بمنزله بالخبر ، جاءنى بالليل وهددنى لردتى عن الإسلام قائلاً : " عقابك هو القتل يا بن النجسة! "

الشىء المفزع أن زوجتى هجرت المنزل برفقة أولادى ، وقرروا مقاطعتى وتركونى بشقتي الجديدة التى تنضح حوائطها بالظلام.

أسير بين الحجرات كالمجنون متخيلاً تجمعهم تحت المنزل منتظرين خروجى ، أستجمع قوتى محاولاً الهروب .

ليلة الأمس عندما كنت أمر بالشارع ، سمعت "بقدونس" القهوجى يتندر على ملابسى ، كأنه يرغب في إبلاغى باتفاقهم مع "مختار" البلطجي كى يتخلصوا من وجهى.

مع ذلك مازلت أعشق أبنائى ، رغم قسوة "سعد" الكبير وحبه للمال ، لكن "ملاك" يمتلئ قلبه بالحنان والخير ، رفض اتفاقهم على قتلى ، لكن أخى وزوجتى أفهماه أنه لا أمل في وقف الفضيحة إلا بالتخلص من وجودى.

أتصورهم يحيطون الآن بـ "مختار" يرتبون خطتهم ، فأثناء نزولى من الشقة إلى الشارع ساعة الصبحية ، سيطلق البلطجى النار في عيونى وهم مازالوا نائمين في منازلهم ، وعندما يسمعون الخبر يهرولون في الشوارع مثل جيرانى ويراهم الجميع ويتساءلون فيرددون ببراءة والبكاء يملأ أعينهم : " قُتل أخونا .. قُتل أبونا ".

سيفعلون ذلك بكل حرص كى لا توجه إليهم أصابع الاتهام وحتى يراهم أصحاب المحلات على أثر قتلى منطلقين من منازلهم ساعة إطلاق الرصاص.

رغم ذلك قررت النزول للشارع ، إذ لا يمكن العيش هاربًا في الشقة طوال العمر ، ويكفينى خروج النهار ، ولكن أين أتوجه؟ ولمن أذهب؟

فالشيوخ والقساوسة يترصدون خطواتى ويتجهزون لاغتيالى ، وأبنائى وأهلي قاطعونى وتبرأوا مني ، حتى جيرانى المسلمين يعاملونني كمرتد عن دينهم.

ترجلتُ سلالم المنزل ، داعيًا رب الكون أن يحميني ويحولني إلى كلب أو فأر أو حشرة ، فأعتقد أن عوالمهم لا تهتم بالأديان أو الأوراق الثبوتيةَ.

" أذى "

جلستُ على المكتب في الصباح محاولاً تسجيل صوت القاتل أو المقتول أو أفراد عائلتهم أو جيرانهم ، لكن صورهم انمحت من عقلى إثر مغادرة حبيبتي " حياة ".

ارتديت ملابسي ونزلت للشارع باحثًا عن إحساسى، المدينة بديعة ، المنازل محاطة بالأشجار ، الشوارع والحدائق والمحلات هادئة ونظيفة ، المقاهى مازالت مغلقة والمطاعم تستعد لاستقبال اليوم السعيد.

أثار انتباهى صوت عجوز يخرج من أحد المحلات ، وبفعل الفضول نظرت داخل الدكان محاولاً رؤية وجه صاحبه ، لم يكن سوى جدران تحتضن كراسى صغيرة في رتابة ، ويتوسط المحل كرسى كبير مرصوص أمامه على ترابيزة مرتفعة أدوات للحلاقة.

تيبست قدمى مع ارتفاع صوت الغناء ، وخرج رجل عجوز من وراء الستارة قائلاً بحب : " اتفضل يا أستاذ ".

اقتربت منه على غير إرادتى وجلست على الكرسى ، فقال بأدب : " شعر ولا دقن " ، وحينما وجد الدموع تملأ عيونى ، استكمل بأسى : " مالك حزين؟! " فقلت : " غناؤك ذكرنى بماض هجرته منذ عشرات السنين!! "

لم يرد وقال وهو يضع قماشة بيضاء على صدرى ويمسك مقصًا ومشطًا ويستعد لعمله : " الدنيا مليانة بلاوى يابنى ، لكن الحب والعطاء لا ينضب ، من يحب لا يمكنه أن يكره ".

واستكمل بتلقائية قائلاً : " منذ ثلاثين عامًا ، أحضر أهلى صبية طيبة لأتزوجها ، لم أكن أعرفها لكننى عشقتها ، فهمتنى وملأت حياتى بالسعادة ، أنجبت منها خمسة أولاد ، ولم تترك منزلي إلا مرة واحدة كل عام لتزور أهلها وتتونس بهم ".

رغم محاولة الذباب المنتشر إسكاته ، لكنه استكمل قائلاً : " لم أبخل يومًا عليها بشىء ، كنت أضع كل ليلة تعبى وشقاى في حجرها ، وللأمانة لم تتوانَ في القيام بواجباتها تجاهى أو تجاه أولادى ، ويمكننى القول ببساطة ، إنها كانت كالملكة وحولت حياتى إلى جنة ".

تجاهلت النظر في عينيه المملوءتين بالدموع ، فاستكمل باكيًا : " حينما تزوجنا لم تكن تعرف عن الأسواق أو الجيران شيئًا ، لكنها فهمت لغتهم وطريقتهم ، لدرجة أن أهلى حسدونى ،

وفى إحدى المرات ذهبتْ عند أهلها وتأخرت عدة أيام ، فأرسلت أبناءها ليعيدوها ولم تأت معهم ، وفوجئت باتصالها في اليوم التالى تطالبني بالطلاق ، كانت حروف كلماتها كالرصاص ، جلست أيامًا أحدّث نفسى متسائلاً.. هل ما طلبته حقيقي؟ هل كان صوتها؟ ولم يهدأ بالى إلا بزيارتها ".

وضع المقص على الرف وأدخل موسًا بآلة أشبه بالمطواة ، وتنهد قائلاً : " عندما دخلت شقتهم فوجئت بأختها تتحدث عن النصيب والقسمة ، وحين حضرت برفقة رجل آخر من السوق قالت بحزن : " سليم جارنا " ، واستكمل الرجل بجَلْيطة : " يا شيخ طلقها لأجل الله ، مبقاش مابينكم عشرة أو أكل عيش " ، لم أطمئن إلى صوته لأننى أعرفه ، فهو الرجل الذى نظر إلى زوجتى بطريقة أربكتنى ، خرجت من عندهم إلى المأذون وطلقتها ، وعدت إلى بيتى منشغلاً باستكمال تربية أولادى وعملى ".

نظر إلى عينى كأنه يطالبنى بالتعليق وحينما خرس لسانى استكمل : " كل ليلة وبعد أن ينام أولادى ، أجلس وحيدًا في سريرى والدموع تنزف من عينى ، لدرجة أننى أصحو كل يوم وأجد المخدة غارقة ، كانت ابنتى الكبرى حافظة أسرارى ، تغير الملايات كل يوم دون أن يشم أحد أبنائى رائحة الصنن الذى يعبئها ، ورغم ذلك تماسكت لأن الأولاد يحتاجون للحماية ".

دارت عينه في المرايا المنتشرة داخل المحل وذهب إلى الحوض وملأ كوبًا بالمياه وشربها ، ودون أن ينظر حوله عاد لعمله قائلاً : " عندما مات زوجها اتصلتْ بأولادى كى تعود لخدمتهم ، وللأمانة سعدت كثيرًا بالخبر ورحبتُ بعودتها ، وعاشت من جديد معنا وساعدتنى في استكمال تعليم الأولاد وتزويجهم حتى أصبح لكل واحد منهم منزل وأسرة ".

ابتسم من قلبه كأنه يواسينى قائلاً : " عندما أعود من عملى إلى شقتي وأجدها نائمة على الأنتريه في انتظارى يطير قلبى من الفرح ، أراها تصحو ببهجة وتجهز عشائى وتخدمنى كعبدة ، لكنها لا تستجيب لأية كلمة طيبة أقولها ، وحينما سألتها : لماذا عدتى مادُمتى ترفضين الزواج مرة أخرى ، فترد والبكاء يخنقها : اتركنى أكفر عن ذنوبى ".

أغلق موس الحلاقة ولملم الفوط من على صدرى وأصر على شرب الشاى معه ، ووضع كرسيين أمام المحل وجلسنا كأصدقاء نستمتع بالطقس ، قال وهو يأخذ الرشفة الأخيرة : " كانت تلعب معى كل ليلة الطاولة ، الشىء الذى يؤرقنى أننى لم أغضب منها أو أحقد عليها ، كنت سعيدًا لبهجتها مع جارها ، لكن الحياة اللقيطة ترفض أن نكون أطهارًا ".

" فى اليوم الذى طالبتَها بالعودةَ إلى نمتَى قالت والبكاء يملأ عينيها : " لو كنتَ زجرتَنى أو تشاجرتَ معى أو رفضت طلاقى ، لعدتَ دون تَردد ، لكنك لم تؤذنى ، فكيف يمكننى النوم بحضنك مرةَ أخرى ؟! "

" زايد "

في هذه الليلة جاءنى الشيخ "ميهوب" وجلسنا في منزلى نضع حلاً للمصيبة التى وضعنا فيها ابن العاهرة "مينا" .

تحدث الشيخ بصوت خفيض قائلاً : " لم يكن يهمنا نقصان أو زيادة عددنا شخصًا لئيمًا ، المشكلة تكمن في التطاول على الفرائض ، فكيف يجرؤ مواطن على استخدام الدين كمطية دون خوف من عقاب الرحمن؟ الجميع سينجرف ويفعل فعلته ويخالف القواعد ، حينذاك لن نستطيع حكمهم أو السيطرة عليهم ".

وافقته ، ليس حبًا في كلامه أو إيمانًا به ، لكن لعلمى بطبيعة البشر فإذا تجرأ أحدهم على الناموس ولم ينل عقابه ، فلن يلتزم أحد بطقوسنا مرة أخرى ، ويمكنهم فعل ما يرغبون فيه دون الاعتداد بالأوامر والنواهى التى تطهر أجسادهم من الدنس.

أثناء استماعى للشيخ ، فوجئت بدخول "بقدونس" القهوجى وأولاد "مينا" وزوجته "ألطاف" ونسيبه "عريان" وأخوه "هدهد" برفقة "مختار" البلطجى.

جلسوا في صمت ونظر الشيخ "ميهوب" ناحيتى ، وبدأ الكلام قائلاً : " نحن أبناء الأديان السماوية ، ويجب المحافظة على نعمة الله التى ورثناها ، ومينا أو محمد حرق ناموسكم وارتد عن ديننا ، ووجوده وسط الحي سيجعلنا أضحوكة ".

انبرى "سعد" قائلاً : " ربنا كل شيء وسوف يخلصنا مختار من جثته وسندفع الثمن " ، نظر "بقدونس" إلينا كواشيًا وتحدث بصوته العالى قائلاً : " خمسة آلاف متكفيش لإنهاء المهمة يا حضرات ، مختار هيشترى فرد جديد ، ولازم تدفعوا عشرين ألفًا ليقوم بالمهمة " ، تدخلت زوجته قائلة : " سندفع بعد انتهاء العملية يا معلم ".

وحين ذرفت دموع ابنه "ملاك" أمامنا ، أخذه عمه في حضنه قائلاً : " موته أرحم من وجوده يا ولدى " ، تفاوضنا مع "بقدونس" وربنا كل شيء كى يقتله "مختار" بالسنجة توفيرًا للتكاليف عند خروجه للشارع قبل حلول النهار.

نظرت زوجته بسعادة إلى "عريان" أخيها وأولاده قائلة : " بكده هنستولى على الشقة والقيراطين ونعيش في بحبوحة بعد رحيله ".

تجاهل "هدهد" أخو "مينا" حديثها ونظر ناحيتى بحقد ، فهب "عريان" فى أخته قائلاً : " مش وقته يا ألطاف ، احنا بنحمى الناموس مش بنفرق ميراث الملعون ".

فى تلك اللحظة سمعت صوت "ملاك" وبكاءه كأنه يُعدِّد ، فطبطب عليه خاله وواساه قائلاً : " كلنا هنموت يا ولدى ولن يبقى إلا عملنا ، وعمايل أبوك سودا ومهببة ".

نسى الجميع خلافاتهم واستكملنا الاجتماع ونحن مبتهجون لاتفاقنا على كل شيء.

نظر "بقدونس" بغيظ ناحيتى واتصل بالتليفون فدخل صبيانه إلى منزلى دون استئذان حاملين الشيش والمشاريب ورصوا الحشيش أمامى وأمام الشيخ لنشرب جميعًا في سعادة ، محتفلين بالتخلص من الشيطان الواطى الذى دنس الأديان بفعلته.

كنتُ مضطرًا لوجود الشيخ والقهوجى والبلطجى في منزلى وبح صوتى عندما رأيتهم يقهقهون كأنهم في خمارة.

الشيء الذى واساني أن أولادى وزوجتى رحلوا إلى منزل حماتي قبل رؤيتهم لهذا المشهد الكفيل بفضيحتى ، تمنيت انتهاء الاجتماع بأقصى سرعة حتى لا يرانا أحد ، لكن الحشيش لعب برءوسهم لدرجة أن البلطجى اختلي بزوجة "مينا" خلف الصالة ليتفق معها على استلام العربون.

سارت في خلاعة أمامنا حتى مدخل الحجرة واختفت معه خلف الباب وعادت منتشية وقالت بصوت داعر : " ربنا كل حاجة وبكرة مش هيبقى لوجوده أى أثر " ، الغريب أن "عريان" وأبناءها و"هدهد" لم يحسوا بشيء وظلوا يفاوضون "بقدونس" على تقليل مبلغ العشرين ألف جنيه ، لكن "مختار" قال ببرود : " ده عملية خالصة لوجه الله يا معلم ولن أتقاضى مليمًا واحدًا جراء تنفيذها!! "

عنما خرجوا من المنزل انتابتنى حالة من الرعب والجنون ، فكيف أبرر لنفسى ما حدث ، أيمكن استخدام القتل دفاعًا عن دين الرب؟ أيجوز ارتكاب الجرائم ورؤية الفاحشة والتغاضى عنها لحماية الصليب؟

وللحظة جاءنى هاجس غريب ، فسألت نفسى : " ماذا فعل مينا لنجتمع عليه محاولين النيل منه وقتله؟ "

لكن وصايا قداسة البابا أعادتنى إلى عقلى فقلت بصوت عالٍ : " إنه عقاب الرب ، ولم أشارك في شيء؟ كنت شاهدًا على الاتفاق الذى وقع في منزلى ، ولم أتواطأ مع مختار أو أُحرّض زوجته أو أخاه على ارتكاب الفواحش ".

أنهيت حوارى مع نفسى قائلاً : " لن أحضر مثل هذه الاجتماعات مرة أخرى ، إذ لا يجوز للقس أن يشاهد أو يرى أو يسمع كل هذه الخطايا ويظل صامتًا ".

" طيران "

ودعت الحلاق وترجلت ساعات طويلة متأملا الوان الزهور في الحدائق ، السماء صافية والنور الساطع فوق البيوت يعيد الحيوية لضلوعى ، الشبابيك المفتوحة والبلكونات المملوءة بالورود تدعونى للتساؤل : " أين كان جمال هذه المدينة خلال رحلة حياتى؟ "

أتلمس الدفء من الشرفات ، البنات الصغيرات يركبن الباص عائدات إلى منازلهن ووجوههن تشع بالنور ، دخلت المقهى الواسع ، وجاءنى النادل بشراب الليمون المخلوط في النعناع ، ونادى على الببغاء الذى يقف أعلى الشجرة فنادى باسمى مرحبًا بحضوري.

المدينة تتلألأ والليل يتسحَّب إلى شوارعها ، أنوار الأعمدة البيضاء بدأت في الظهور لتشكل لوحة من اللؤلؤ الدوار يحمى المدينة من الظلام.

تذكرت فجأة " حياه" فحاسبتُ القهوجى وأسرعتُ إلى المنزل ، وحين وضعت المفتاح في القفل وسمعت موسيقى "الجنة" تشدو في الأركان ، تذكرت الليلة الأخيرة من كل شهر التى تجتمع مع حواريها لتنظف أرواحهم وتملأ أعماقهم بالحب.

كانوا يحتفلون بعيد الطهر مع أقرانهم في ربوع الدنيا ، يلفون أياديهم برباط من الخيش ويوثقون قلوبهم بتعاويذ السلام متعهدين بالمحبة حتى خروج الروح من أجسادهم عائدة إلى بارئها.

دخلت مكتبى وسمعتها يودعون بعضهم في سلام ، أحضرت كوب ماء مقدس ووضعته على مكتبي قائلة : " كنت فين طول النهار ، اشرب وطهر روحك؟! "

ابتسمتُ في وجهها وأخذتها في حضنى وبادلتنى الود قائلة : " اذهب حالاً للحمام ، بصيرتك محتاجة للطهارة .

أخلعتني ملابسى ووضعتني داخل البانيو وفتحت المياه الساخنة فوقنا ، وغصنا في المياه الدافئة وقتًا طويلاً ، دلكت جسدى وهى تترنم بأناشيدها حتى حولتنى إلى أثير في براحها الصافي.

سحبت روحى وراءها وطرنا فوق أعالي السماء حتى وصلنا إلى نقطة مضيئة كالشمس وغرقنا وسط نورها ، وشاهدت نفسى أرفرف بجوارها كأنى عصفور يتدفى بأجنحة أمه.

داعبتنى فانتشيت وأحسستُ بروحى مغمورة بالسعادة ، فى تلك اللحظة شعرت برائحة شفتيها وهى تغرق في فمى.

الموسيقى تشدو من حولنا كأننا نمرح داخل حدائق تمتلا بالأشجار والحيوانات البرية ، شدتنى من أصابعى فجريت وراءها وغرقنا في بحر السكون.

أحسستُ بدفء حلمات ثديها ، فتفتحت مسام جسدى وذابت خلايا عروقي ، وحين سمعنا دق الباب المتواصل عدنا من الفضاء ، لملمت شعرها المبلول ولفته بفوطتها البيضاء ، ووضعتْ الروب على جسدها وابتسمتْ قائلة : " روحك بقت صافية زى الحليب ".

اتجهت للباب وأخذت أكياس الخضر والفاكهة من البواب ، وعادت إلى حجرتها لترتدى ملابس النوم ، حكت كعادتِها عن يومها المملوء بالسعادة وفرحتها بمريديها الذين تزرع الأمل فى نفوسهم الطاهرة.

وحين سألتها عن مدير الكلية الذى يراقب جسدها في انبهار ، ردت بنبرة مملوءة بالرضا : " مش هنتذكر النهاردة إلا البهجة اللى مالية حياتنا ".

جلستْ وحيدة على كرسى الأنتريه قائلة : " هجرنى دون وداع ، ولم يتصل رغم غيابه الطويل ".

كنت أعرف أن أخاها الوحيد - الذى سافر إلى بلاد غريبة مع زوجته الأجنبية وترك لها شقة الأسرة بعد خلافه الطويل على طريقة حياتها - انفصل عنها وقاطعها ، ومع مرور الوقت عاد ليسأل كل فترة ، ومع ذلك كانت حزينة لبعده ، ليس لشىء إلا لقلة خبرته في بلاد مهجورة.

عندما تتذكره تغيب عن الوعى وتحتاج للوحدة كي تداوي جروحها ، تركتها ودخلت حجرتى وسمعت صوت تلاوة صلواتها وتهجدها طالبة من الروح العظمى أن تمد روحه بالسلام ، كانت على يقين من تواصله معها وتلقيه تعويذها ليتذكرها ويشتاق إلى رؤية عينيها.

تحتاج رغم النور الذى يملأ حياتها إلى صوت من الماضى ليدل على وجودها ، هذه الذكريات التى تأتيها كل فترة تعذبنى وتشعرنى بالعجز تجاه امرأة لم ترغب في حياتها إلا ملء حياتى بالسعادة.

" ألطاف "

حينما علمت في الصباح بفشل "مختار" ، انتابتنى حالة من الجنون ، إذ كيف يفلت المجرم من قدره المكتوب؟

أطلق البلطجي من مسدسه الرصاصة صوبَ رأسه ، لكنه وقع من الخوف قبل دخولها إلى عينيه ، ومع ذلك جريت مع أبنائي وأخوه إلى شقته الجديدة معتقدين نجاح خطتنا ، فوجدناه ملقًى كالكلب وسط الشارع ومحاطًا بالباعة الذين تحسروا على قدره السيئ.

أمسك "سعد" السكين محاولاً قطع رقبته لولا طيبة "ملاك" الذى أحاطه بأحضانه وبكى على صدره ، فعدنا منكسرين على إثر تعاطف الجميع مع ألاعيبه.

اتصل الشيخ " ميهوب" فى المساء مطالبًا بتوقيعى على وثيقة تندد بتاريخه ليقدمها إلى العدالة ، إذ يكفى اعترافى بهرطقته وقيامه علنًا بسب وازدراء الأديان ، وليس هناك دليل أقوى من الأوراق الثبوتية التى تؤكد قيامه بتغيير دينه عدة مرات.

تقدمت للكنيسة بطلب لحرمانه من أهليته ، فوافق القس وطالبنى برفع القضية للحكم بهرطقته وعدم أهليته واستحقاقى ميراثه مع أبنائه.

في الليلة نفسها تقدمنا بالشكوى للأجهزة ، فجاء الضابط وقبض عليه وهو يتسول العطف من المارة ، رغم أنى طليقته ، لكن أبناءه يمكنهم الحجر عليه وتسلم منزله والقيراطين.

جاءني "مختار" مطالبًا بحقه ، عنفته بسبب فشله الذى أدى بنا إلى الطرق المغلقة ، فكان يكفي إطلاق الرصاصة في مكانها الصحيح كى نتخلص من رائحته.

التف حولى كالذئب ، عالمًا بغياب أولادى عن الشقة وطلب معاشرتى بجراءة وشبق ، وافقته رغم رائحته النتنة ، أدخلته الحمام وأنزلت من على جسده الأوساخ ، قضيت معه أوقاتًا مليئة بالنشوة ، امتصنى بجبروته وعاشرنى كمومس وسبنى بأوسخ الشتائم مما فتح شهيتى ، لم يتركنى إلا بعد دخول الليل وتمزيق فتحتى وتوريم شفتى.

عندما ارتدى ملابسه كدت أصرخ في وجهه قائلة : " متجيش هنا تانى ، أخذت حقك وكفاية

" ، لكنى اقتربت من صدره المفتول قائلة : " اتصل بى فى أى وقت ، أنا مستنياك علشان أديك تمن فشلك يا نذل ".

" شجرة "

عندما تركتنى وذهبت إلى حجرتها ، انتابتنى حالة هلوسة ، وظللتُ أهذى كاتبًا بعض الجمل عن ملامح شخصيات نسيت اسمها وظلت راكنة بأعماقى.

قبل موت أبى كنت أمرح وسط الحقول أستمتع بدفء البراح ، وباختفائه انهارت حوائط الحماية ، وحين تزوجت أمى حرصًا على الميراث وروابط العائلة من أخيه تمزقت حياتى ، وأصبح عمى مصدرًا لكل الكره والحقد.

ورغم ذلك تمكنت من استكمال دراستى ورحلت من القرية إلى عوالم المدينة ، عملت في الصحافة ودخلت الجماعة الثقافية من أوسع أبوابها وتعرفت على كبار الكتاب والأدباء.

لكن القدر شاء أن يموت أعز أصدقائى بسبب علاقة مع فنانة أحبها لدرجة العشق وتركته أسير جنونه بعد إعطائها كل شيء ، تفانى كي يسعدها ، لكن المرأة لم تتواصل مع إخلاصه واندهشت من براعته كأنه مجنون.

قابلتني كثيرًا لتوثيق أواصر المحبة بيننا، لكني رفضت ملاحقتها ليس كرهًا فى العشق الحرام ولكن حرصا على مشاعر صديقي.

نفذت إلى عالم الصحافة السري وانتشرت مقالاتها التي يراجعها عشاقها واندهشت من موقفي الغامض؛ إذ كيف يرفض بعض الناس المرور من خرم الإبرة إلى جنة الثروة والشهرة خاصة إذا كان القبطان امرأة جميلة تسمى " ثناء".

وحين هددتنى بإبلاغ البوليس بدعوى ملاحقتها كى تجبرنى على معاشرتها ، قررت الابتعاد عن عالم الدعارة المفتوح.

هجرتُ المدينة وعدتُ للقرية ، لكننى لم أدخل البيت وقابلت أمى وعمى في الشارع وطالبتهما بميراث والدى ، فأعطانى مبلغًا كبيرًا ووقعت على تسلمى كامل حقوقى وعدت مرة أخرى إلى جحور المدينة.

بنفس اليوم قابلت "حياة" بأحد نوادى العاصمة وهى تجلس على ترابيزتها وحيدة ، عرفتها بنفسى وحكيت حكايتى ، وشربنا حتى الثمالة لدرجة أن حواراتنا تداخلت بشكل غريب ، كأننا نحكى عن وقائع واحدة .

في هذه الليلة ، قلت لها بجنون : " أرغب في تسجيل مشاعر الغل التى تملأ حياتنا " ، ضحكت بهستيريا ، وأخذتنى من يدى وذهبنا إلى شقتها ، سلمتها المبلغ الذى ورثته .

رغم علمها بقصتي مع "ثناء " التي تعرف عنها الكثير بسبب علاقتهما الوطيدة ، لكنها لم تتطرق في أحاديثها عن صديقتها التى تحترم خياراتها.

عشنا في شقتها كعاشقين ، وتعرفت على دينها الجديد الذي يعمق حياة الروح ولا يهتم برغبات النفس بل يسعى إلى قتلها وتطهير الجسد منها ، أعجبت بإيمانها واعتنقته إرضاءً لها.

في بداية علاقتنا كانت تقول : " نحن مقطوعين من شجرة واحدة ، فلنكن أصدقاء وإخوة وأبناء وآباء لبعضنا ".

يومها بكينا على قدرنا ، وقررنا ممارسة حياتنا بدون تاريخ أو ذكريات ، وحينما تطل بعض الأحداث على حاضرنا نترك بعضنا للوحدة كى نتطهر من آثار الماضى.

اليوم تلقيت رسالة غريبة مفادها موت أمى وضرورى حضورى قبل الفجر لرؤية جسدها ووداعها قبل مثواها الأخير.

لم أهتم ولم أعد قراءتها وأحسست بالقهر رغم امتلاء الحياة من حولى بالسعادة ، لا أرغب في رؤية وجهها الميت ولا أتمنى النظر فى عيون عمى ، إذ كيف جرؤت على فتح فخذيها لأحد غير أبى وإنجاب إخوة من غيره ؟

لا أدرى لماذا سيطرتْ هذه الهواجس على عقلى ، فطبقًا لإيمانى الجديد يجب نزع الحقد من أرواحنا ، وإزالة الحقد الذى يسيطر على قلوبنا ، وتطهير أنفسنا من مجرد التفكير في الشر.

جلستُ إلى مكتبى وكتبتُ على الورقة البيضاء كلمة "مشاعر" ، وأطلقت بقلمى عليها سهامًا من كل اتجاه ، وعندما ظهرت كأنها الشمس ، قمت لأنام ، لكن المرتد لم يتركنى بحالى ودعاني لأسجل أحداث الحى اللعين.

"ضابط"

ما الذى بلانى بهذا العمل؟ ليت أبى لم يدفع الرشاوى لأدخل الشرطة ، لم يكن يرغب إلا فى التباهى بالدبورة التى ترفرف على كتفى ، ورؤية الرعب يملأ عيون أهل الحى وهم يقولون : " الضابط راح... الضابط جه ".

حصلت على النسر ، وأصبحت رئيسًا للمباحث ، لكني أحس بتفحم مشاعري ، فطوال النهار والليل لا أسمع إلا الكذب ولا أرى إلا الوجوه القاسية المرعوبة ، أنتظر بفارغ الصبر كل ليلة لحظة خروجى من هذا المبنى ، كأننى راحل من جهنم ، لم يكن ينقصنى إلا وجود هذا المعتوه الذى طاردته أسرته لارتداده عن دينه وطلبوا البت في سلامة عقله.

رغم الطعنات والورم الذى ملأ جسده ، لكن الأمناء تناوبوا عليه حين عرفوه تهمته ، حتى مأمور القسم خرج من مكتبه ليتفرج عليه ، كأنه شيطان رجيم ، وأشار إلى نائبه ليضع أصابعه في مؤخرته دلالة على العفة.

وصرخ معاون المباحث الذى يدمن الحشيش ، كمجنون في وجهه ، قائلاً : " يا لوطى يا عظمة زرقا يا عرس يا بن الكافرة " ، لم أتمكن من إصدار أوامرى لوقف إيذائهم للرجل ، وأصيب لسانى بالخرس ، الجميع انبرى شارحًا كيفية انتقاله بين الأديان محققًا رغبته الدنيئة بطلاق امرأته للزواج من عاهرة.

تجمع عليه المحابيس فى التخشيبة ، وهَمَّ "سوستة" بقتله ، ولولا تدخل الأمناء لخرجت روحه من جسده ، لا أدرى سبب تعاطفي معه؟ وكيف أسامح نفسي على هذه المشاعر التى انتابتنى فجأة؟

حين نظرت داخل عينه كدت أبكى متذكرًا وجه أمى وحضنها الدافئ ، تنحنح كعصفور مجروح قائلا : " لا تقتلونى " ، انهمرت دموعي ووقفت مندهشًا للحظة ، وأعادتني صرخات الجميع ووجوههم العابسة لوعيى فصرخت : " كفاية ، محدش يلمسه ".

خيَّم الصمت على المكان ونظروا تجاه الصوت ، فطالبتهم بإعادته إلى التخشيبة وأمرت "سوستة" بحمايته حتى عرضه على النيابة الصباحية.

استكملت عرض المحابيس على مضض وقمت أكثر من مرة ولطخت وجوههم ليعرفوا قدر المكان وهيبته.

حينما أسب أحدهم ينبرى الأمناء للفتك بجثته ، لم أحس خلال عملى بالضجر مثل هذه الليلة! أيجوز أن تكون عيون المرتد هى السبب؟

ما الرسائل التى أطلقها وأدت إلى توترى؟ لا أرغب اليوم في المرور على "لولا" التي تعرف زوجتى مدى عشقى لها ، لكنها أبدًا لم تفاتحنى في سبب علاقتنا.

عندما اخترتها أمى ووضحت طبيعة عملى كى لا تخدعها ، تجاوبت ولم تعترض ، نصحتها بألا تتدخل في حياتى أو تسألنى عن موعد خروجى أودخولى ، التزمت "جهاد" بالوصايا وتركتنى في حالى ، وانشغلت بحياة طفلتى البريئة.

كلما نظرت في عين "مريم" كل صباح أحسست بأنها تحمل في قلبها رحيق الخير ، رغم يقيني بأنها ابنتي ، لكن نور وجهها يربكني ، لدرجة أنني فكرت مرات كثيرة بترك هذه المهنة القذرة والتفرغ لتربيتها.

اندمجت في التوقيع على نماذج الحبس وقرارات النيابة التى تحتاج إلى التنفيذ ، نظرت للأوراق المكومة على مكتبى قائلاً لنفسى : " عايز كمان ساعة عشان تخلص ".

مشاكل الأمناء والمرشدين تلاحقنى كلما حاولت الاختلاء بنفسي ، أرغب في الهروب من مسئوليتي ، سأذهب إلى البار ، لكن قبل خروجى سأمر عليه وأسأله : "لماذا غيرت دينك ؟ مش خايف من عذاب القبر وجبروت رب العرش؟! "

" باب "

الدق المتواصل على الباب أدى إلى قيامى مفزوعًا واختفت ملامح الضابط الحزين من أعماقى ، وعندما فتحته فوجئت بشاب أربعينى يسألنى بأدب عن أخته.

حاول التعريف بنفسه معتذرًا عن حضوره دون موعد ، رحبتُ بوجوده وقدمت له كوبًا من الشاى واتصلت بتليفونها لأبلغها بالخبر ، صرخت كمجنونة : " خمس دقائق وهاكون عندكم ".

لم يمهلنى الوقت لأحكى عن سبب وجودى في شقتهم ، لأنه تحدث بطلاقة عن عمله وأسرته ، وكيف يعيش سعيدًا بين الناس في الجانب الآخر ، الطرق النظيفة والمواعيد المنضبطة والمستشفيات المجهزة والشرطة القوية والعلاقات المحترمة ، انفرجت أساريره وابتهجت عيونه وهو يعدد ميزات عالمه.

قال بتهكم : " أتابع أخباركم من الفضائيات " ، تغيرت نبرة صوته وهو يسرد ظروف بلادنا كأنه أجنبى ، وسألنى فجأة : " وحضرتك مين؟ "

أنقذنى الجرس من الجواب الذى اعتقدت أنه سيسبب الحرج لوجود رجل غريب في منزلهم ، اعتذرت بأدب واتجهت للباب كى أفتحه.

دخلتْ إلى الصالة وعيونها غارقة في الدموع ، احتضنته مرات كثيرة وبادلها الود والابتسام ، لم يتحدثا كثيرًا وردت بحب : " عشر سنين " ، " جبت قلب منين " ، " ردمت على أختك جواك " ، " ده أنا الوحيدة اللى فضلالك " ، " إزاى قدرت على الهجر والقسوة يا خوى ".

اندمجت في ملامسة جسده ووجهه ، وانبرى في احتضانها متأملاً حواسها ، كأن عربة الزمن ستعود للوراء إذا حدقا في عيون بعضهما صامتين.

استغرقت في سؤاله عن زوجته وحياته واعتذرت عن وجودى وتركتهما مبتعدًا ، لملمت كتبى في حقيبة صغيرة قائلاً بحب وأنا أنظر إليها : " على تليفونات " ، سملت على أخيها بود وتركتهما متجهًا إلى المقهى وقارنت على غير إرادتى علاقتها بأخيها بعلاقتى بإخوتى.

لا أعرف لماذا امتلأ جوفى مرة واحدة بهذه المرارة؟ وأعادنى مشهد "حياة" وأخيها إلى تذكر وجه أمى وهى تتوسلني كى أغفر خطيئتها.

في هذا اليوم حكت عن هواجسها وعدم مقدرتها على حمايتى وخوفها على ميراثى ، بكت دموعًا سوداء لأغفر قسوتها وتركى بمنزل جدتى ليلة دخلتها حتى لا أفسد بهجتها.

ماذا فعلت لأبادل حبها بالقسوة ؟ ماتت جدتى وأنا في الغربة وتماديت في النكران ، ولم ألبِّ رغبتها لرؤيتها قبل الرحيل ، تحدثتُ معى في التليفون قائلة والبكاء يقطع قلبها : " يا واد عايز أشوفك ، اختشى على وشك ، ارجع علشان أقابل رب كريم وأنا مرتاحة " ، لم ألن وأغلقتُ السماعة قائلاً بغضب كأنها عدوتى : " إن شاء الله " ، حينما وصلت إلى المقهى جلست صامتًا ولم أرد على تحيات النادل الحارة ، فأحضر قهوتى وتركنى مندهشًا .

كدت أخرج أوراقى وأسجل ما جرى للمقتول لكنى تراجعت ، وأمام ضغط مشاعرى انفجرتْ أعماقي كأنها تتمنى الارتماء والعيش في رحاب إخوتي والتظلل برائحة أمي ، انهمرتْ دموعى وقررتُ بتلقائية التوجه للقرية لأعالج مرارات الزمن وأصلح ما أفسده الدهر.

اتصلت بـ "حياة" قائلاً : " هسافر الليلة للقرية علشان أشوف إخوتي " ، اندهشت وردت مبتهجة : " شيء طيب ويجب أن تتحلى بأفضل طرق للحب ".

لم أكن أحتاج لوصاياها فقلبي ملئ بالشوق ، أغلقتُ السماعة هاربًا من صوتها المسالم ، وحاسبت النادل مقررًا مغادرة المدينة ، لكن مصير المقتول يلاحقنى ، جلستُ وسط الحدائق وأخرجتُ أوراقى ودخلتُ بإرادتى عالم الرعب.

" ميهوب "

اتجهتُ مع القس "زايد" صباح اليوم إلى النيابة ، وضع يديه في يدي بطريقةٍ فاجأتنى ، وسمعت هتافات بعض المارة المؤكدة على تكامل الهلال مع الصليب.

سرنا مبتهجين بالقبض على الفاسق المرتد ، وحينما رآه الجميع أمام غرفة النيابة مقيدًا في السلاسل ، انبروا بالبصق في وجهه وتطاولوا عليه باعتباره حشرة.

لطخه الأمناء والمجندون على وجهه ورأسه بأياديهم ، وحاول كالفأر تفادى الأكفف والأقدام التى لا يعرف مصدرها ، وعندما نادى الحارس على اسمه ، دخلت مع القس وزوجته حجرة النيابة فسألنا المحقق : " أنتم الشهود؟ " فنطق لساني بأدب : " يا سيادة الوكيل هذا المتهم يتلاعب بديننا الحنيف ، فبعد اعتناقه الإسلام واستخراج بطاقة باعتباره محمد قام بتطليق زوجته ، ثم عاد إلى المسيحية وغير مِلّته وذهب إلى المحكمة وقام بتطليقها مرة أخرى ".

اندهش وكيل النيابة ورجع بجسده في الكرسي للوراء ، ونظر بوجهه متسائلًا : " اسمك ايه يا راجل؟ " لم يرد ، فلطخه "الأمين زكى" على خده قائلاً : " جاوب على الباشا يا بن الجزمة " ، فرد قائلاً : " اسمى محمد " ، فضحك الوكيل قائلاً : " لكن بطاقتك تؤكد أن اسمك مينا ".

أخرج المرتد بطاقة أخرى من جيبه وسلمها للمحقق الذي سأله بنبرة اتهام قائلاً : " معاك بطاقتين بأسماء وديانات مختلفة ، وقعتك طين ، انت مواطن ولا اثنان؟! "

انبرى في شرح جريمته قائلاً : " كنت أبغى تطليق زوجتى ليس كرهًا في جمالها ، ولكن لاستحالة العشرة بيننا ، وسمعت نصائح جيراني وغيرت ديانتى ، فهل يضر ذلك أحدًا؟ "

اقترب "الأمين زكى" من جسده وضربه بظهر الطبنجة على رأسه قائلاً : " أنت هنا لتجيب عن أسئلة الباشا يا بن العاهرة ".

طلب القس "زايد" وزوجته تحويله لمستشفى الأمراض العقلية والحجر عليه والتحفظ على الشقة والقيراطين وقبلت النيابة طلبهما بشرط تأكيد دكتور المصحة اختلال عقله ، وكادت زوجته تزغرد لولا وجودنا.

حين انشغل المحقق في الرد على تليفونه ، اقتربت "ألطاف" منه وأخرجت لسانها وتحريكه شمالا ويمينا وضربت بكف يدها المضمومة على كف يدها المفتوحة كأنها تشمت في ضعفه.

أخرجتنا النيابة من الحجرة بعد انتهاء شهادتنا ، وأحالت أوراقه إلى المستشفى للكشف على قواه العقلية ، إذ كيف لمخلوق أن يغير دينه ويظل عقله سليمًا؟!

ما يخيفنى في الأمر هو تجرؤ شباب الحى على اجتراء نفس فعلته ، لذلك يجب الانتقام منه حتى يرتدع الناس ويعرفوا مصير الشاردين .

خرجتُ من المبنى وودعت "زايد" ، وعدت لمنزلي فلم أجد زوجتى ، أتذكر الآن ذهابها للبلدة منذ الصباح لزيارة أمها ، أعرف رغبة الملعونة في الانعتاق من وجهي ولو عدة أيام.

أخذتْ ابنتى معها كى تطمئننى على شرفي ، لكنى أعرف جنس النساء العاهرات ، فابن خالها الذى رغب في الزواج منها ينتظر كل عام زيارتها ، أعلم أنها تفتح فرجها ليمتطيها بشهية ويدقها سعيدًا بخيانتي والانتقام من لحيتى.

ستتركهما أمها بالغرفة وحيدين بالساعات بدعوى اطمئنانه عليها ، الفاجرة ستخلع ملابسها وتعاشره بقميص النوم الأسود الذي اشتريته من عرق جبيني ، وحتى يخلو لهم الجو ستترك ابنتى تلعب مع أولاده في الحقل.

لا أعرف كيف أستكمل يومى بعد سفرها ، سأذهب لبيت الله وأؤم الناس بصلاة العصر لعل براح المسجد يطهر روحى من الوساس الخناس.

لا .. لن أذهب للمسجد ، فليس الآن وقت صلاة ، ماذا يقول الناس عنى؟ سأتوجه إلى شقة زوجتى الأولى ، أعرف أنها تكره رؤية وجهي ، لكن ابنى "سفروت" مازال يعيش معها وينفق عليها.

يعمل "سفروت" سائقًا على توكتوكه ، وينام معها ليمنعها من ارتكاب الفاحشة ، رغم كرهى ورفضه مواجهتي وشربه الحشيش ومصاحبة اللصوص ، لكنه مازال يعمل لوجودى ألف حساب.

حينما فتحتُ الباب سمعتُ أصواتًا غريبة ، فدخلت سريعًا إلى حجرتها ووجدت شباك المنور مفتوحًا وبقايا طعام وقمصان نوم ملقاة على الأرض.

نظرت إليَّ بخسة ، كأنها تقول في جراءة : " أيوة كان هنا رجل غريب ، وعاشرني على نفس السرير اللى شاهد ليلة زفافى عليك يا فاجر" ، رمقتنى بنظرة غل كأنها تتحدث في صمت : " هل تستطيع فعل أي شيء يا شيخ الغبرة؟! "

طالبتها في جراءة بخلع ملابسها وركبتُ عليها كالجمل وقطّعتُ نهديها بأسنانى ، لكن الملعونة ضحكت عن آخرها متسحبة من تحتى قائلة بفجر : " راحت عليك يا شيخ مبهوب! "

" قمر "

عندما وضعت قدمى على أول الطريق وظهرت بيوت القرية القديمة شاهدت المقابر البعيدة كأنها تناديني ، أمى تنام تحت أحدي بوابته ، ترجلت دون إرادتى إلى قبرها وجلست امامه املأ غفرانها لقسوتى.

من أكون حتى أعاقبها على زواجها ؟ ماذا فعلتُ حتى لا أريها وجهى إلا مرتين بعد رحيلى من القرية؟

جاءنى الترُبى وعرفنى من ملامحى ونبرة صوتى ، أخذنى بالحضن وطلب منى الصلاة على روحها ، نادى على الشيخ "بتواه" ليقرأ الجزء الأخير من سورة البقرة ، أعطيتهما ما فيه النصيب وتوجهت إلى منزل إخوتى.

دققت الباب وفتح عمى بعمامته الضخمة ، وصرخ من أعماقه باكيًا مندهشًا من وجودى قائلاً : " أخيرًا عدت يا ولدي " ، نادى على إخوتي الثلاثة وعرفنى عليهم وبادلونى الأحضان ، لم نتكلم عن الماضي ، ولكنني سمعت أخبار مدارسهم والحكايات المفقودة عن أمنا.

سألنى أصغرهم : " أنت أخوى؟ " فأجبت على استحياء : " نعم " ، فاستكمل : " وكنت فين؟ " قلت : " الدنيا واسعة " ، أنهيت أسئلته المكررة بسؤاله عن صفه الدراسي وتمنيت له أن يصبح كاتبًا أو صحفيًا .

نظر عمى بريبة ناحيتى ، كأنه يقول في صمت : " أرجوك لا تتمنى لأحد أن يكون مثلك " ، اعتذرت لعدم مقدرتى على حمل الهدايا ووعدتهم بإحضار كل ما يطلبونه ، دونت طلباتهم في ورقة صغيرة على أمل تلبيتها في المرة القادمة ووضعتها فى جيبى.

اختليت بعمي أمام المنزل وسألته : " كيف ماتت؟ " رد والبكاء يملأ عينيه : " كانت تتمنى رؤية وجهك وسماع صوتك ، صلت كثيرًا لتعود ، بكت سنينًا لتسامحها ".

وحينما وجد دموعى تملأ عينى طبطب على رأسي قائلاً : " متلومش نفسك ولا تلومها فلا مهرب من قدرنا ".

قضيتُ الليل بينهم مبتهجًا ، كأن الزمن عاد للخلف ، رغم غياب جسد الأم التى نعتبرها أغلى من حياتنا.

وحين أعلن المسجد القريب أذان الفجر ، انسحب عمى متأبطًا يد "كريم" واتجه إلى الجامع ، ونمت ليلتي وسط "على" و"مسعود" كأننى طفل في المهد.

جاءتنى في الحلم وأخذتنى في حضنها وطرنا نحو المزارع التى تحيط بالقرية وقالت بحب : " هحتفل برجوعك يا وسخ ".

هبطنا فوق القمر وسرنا بين هضابه ودخلنا أعلى السحب حتى وصلنا إلى نقطة مضيئة ، ووقفنا على شجرة مورقة كأننا عصافير ، وأشارت إلى منزلنا في القرية وطالبتني برعاية إخوتى الصغار.

من هناك رأيت "حياة" ترافق أخاها وسط شوارع المدينة المملوءة بالأشجار وتداعب عيونه فى حنان ورقة ، ونظرتُ لأمى وبكت.

عندما انتصف النهار أيقظنى عمى من أحلامى وطالبنى بارتداء ملابسى لأفطر معهم على رأس الحقل.

بادل عيونى الود قائلاً : " صح النوم " ، ونظر إلى إخوتي قائلاً : " مليش في الدنيا غيرهم ، اترك المدينة وعش معنا ، احنا محتاجين لرائحتك ".

كدت أوافق على عرضه لولا تدخل أخى الكبير قائلاً : " وايه اللى هيعمله كاتب في مزارع وشوارع قرية لا تعرف إلا البهايم والزرع " ، خرجت نبرات صوته مملوءة بالدهشة ، لكننى تفهمت موقفه بسبب غيابى الطويل ودراسته للطب التي غيرت طريقة تفكيره.

رغم أنى لم أرد على ملاحظته ، لكن "مسعود" استكمل الحديث قائلا : " هيساعدنا في زراعة الأرض ، " نظر أخى بريبة ناحيتى وسألنى : " انت لسة فاكر طرق الرى والحرث والحصاد " ، أنهى عمى حوارهم قائلاً بود : " سيبوه على راحته يا ولاد ، البيت والأرض ملكه ، إحنا محتاجين لضفره ووجوده معانا كافية علينا ".

بعد انتهاء الفطور ، شربنا الشاى على الركية ، وأجلوا مذاكرتهم وعملهم للتعرف على أخيهم ، اعتذرتُ عن غيابي الطويل وعدم السؤال عليهم ، ووعدتهم بالعودة بعد ترتيب حياتى في المدينة ، كانت ليلة غريبة ، أهم ما فيها أنى نسيت المقتول وأسرته.

* بقدونس *

ماذا فعل "مينا" حتى تنتقم الدنيا منه؟ أرغِبَ في تطليق زوجته ومرافقة امرأة أخرى ، وهل في هذا الفعل أية جريمة؟

لماذا إذن تجمعوا عليه آملين قتله ، فزوجته وأولاده الذين صرف عليهم دم قلبه وعاشرهم بالمعروف وآواهم سنوات في منزله ، يتمنون اغتياله وأخذ ميراثه على حياة عينه ، أى ظلم يلاقيه الرجل؟! ولكن ألا يستحق أكثر من ذلك؟ لأنه تهاون معهم وحقق رغباتهم على حساب نفسه وأدى طمعهم إلى نكران جهوده وفضحه للاستيلاء على أملاكه.

رغم مشاركتى خطتهم ، لكنى أعرف هدفى من العملية ، فحصولي على آلاف الجنيهات يكفى لفعل أى شيء في الحياة.

عندما رأيت وجهه فى الصباح وهو يدخل النيابة مقيدًا بسلاسله كدت أقع على الأرض ، تركتهم وغادرت المبنى متراجعًا عن الشهادة ، ولا أدرى لماذا تعاطفت مع الرجل الذى اجتمع عليه الكل ليغتالوه؟

كيف أدت نظرته إلى ترددى ؟ ولماذا تذكرت لحظتها رائحة حضن أبي ودفء عيون أمي؟

هل يعرف أحد في حي العواهر البلاوي التي وقعت لى؟ وهل يحترمون دموعى وحزنى إذا عرفوا أن خالى تآمر على أبى في ليلة مقمرة معتقدًا أن زواجه من أمى سيجعله يتنازل عن أرض أبيه ويغادر القرية مع جدتى بعد عمله فراشًا بالمحافظة؟ لكن والدى تعنت ورفض طلبه مما أدى إلى وقوع المصيبة.

في الليلة المشئومة جلس وسط أخوالي على رأس الحقل يشربون الشاى منتظرين الانتهاء من رى الأرض ، وحين فاتحه خالى في الموضوع ، اندهش قائلا : " مش وقته يا مخيمر" ، فأخرج البندقية وأفرغ طلقاتها في قلبه.

غطى صوت الماكينة على صوت صراخه ، أوقف تكتكات الماكينة في برود وجر جثته إلى أرض جيرانه الذين كانت بينهم وبيننا خصومه لم تنته وترك جثته وحيدة في الظلام ورحل مع إخوته كالخفافيش.

بنفس الليلة عاد إلى منزلنا ليُطمئن أمي ، فسألته جدتى : " فين طغيان يا مخيمر؟ " فرد بخوف : " لا أعرف " ، فاستكملت بإصرار : " كنت معه بالغيط ، ازاى متعرفش ؟ " واستطردت قائلة وأنا أقف بركن الغرفة منتظرا عودة أبي : " وجاى منين صوت الرصاص يا ولدى " ، فقال ببغض : " اتلمى يا مره ".

صرخت جدتى قائلة : " قتلته يا نئب ، دمه بينزف من بين صوابعك " ، أخرج بندقيته وأفرغ الطلقات في رأسها ، وحين صرخت أمى قائلة : " حرام عليك يا خوى " ، قال بشرٌ ملأ حجرات المنزل : " طب الحقيهم يا وسخة ".

جرت أمى رغم الرصاص الذى ثقب ظهرها واحتضنتى في أحد الأركان ، فانطلق وراءها كالوحش قائلاً : " مش هسيب لعائلته أثرًا يا خاطية " ، وأفرغ باقي الطلقات في رأسها ، ركلها بقدميه وحدق فى الصمت ورائحة الدم تفوح من حوله ، وشدنى من تحته وشاهد الدم يملأ ملابسى ووجهي ، فتأكد من موتى ، وانطلق من شباك المنور إلى حقول القصب واثقا من قيد القضية ضد عائلة جيراننا التى ترغب في الثأر من والدى.

فى تلك اللحظة دخل الحاج "أحمد" جارنا وزميل أبى في المحافظة ووجدنى حيًا ، فقال لأخيه الذى رافقه في الظلام : " مش مهم... هنخبيه فى مصر ومش هيعرف حد مكانه ، ولما يكبر هيأخذ بثأرهم ".

ركبت معه قطار الفجر وتركنى بمنزل أقارب زوجته بحى مزدحم بالبشر والمواشي ، وعملت بالسوق شيالا وبياعًا ، قاسيت كثيرًا حتى تعلمت دواخل البشر ، لكنى عرفت أن الحياة فردة جزمة ، وآمنت بأن لا شىء فوق الأرض يستحق قهرتنا.

عندما تعلمت أن الذى يملك قرشًا يستأهل قرش ، ادخرت مبالغ طائلة في الخفاء واشتريت قطعة أرض في هذه الحي وبنيت منزلاً وجهزته لقضاء الباقى من عمرى في أركانه.

الشىء الذى يعزينى أن أولادى وزوجتى وأهل الحي يخافون من هالتى ويسمعون ندائى كأمر ، لا يعلمون بحكاية خالى وكيف خرجت حيًا من قلب الموت الذي ترصدني مئات المرات ولم ينَلْني.

عندما بلغت عشرين عامًا ، طاردني وجه خالي كأنه يناديني ، وسمعت معايرات أهلى وجيرانى ، فتذكرت الحكاية التى كنت شاهدًا على وقائعها ، دعاني أبي في هذه الليلة ووجهه يمتلئ بالنور للذهاب إلى القرية للأخذ بثأره فعرفت أن الموعد قد حان.

صباح تلك الليلة والمطر يملأ أسفلت الشوارع قررت الرحيل ، دهنت وجهى ويدى وقدمى باللون الأسود ، وركبت القطار وأنا أخفى الطبنجة بين ملابسى.

انتظرتُ بميدان البلدة كغريب ، حتى خرج من الجامع بعد صلاة الجمعة يمسك بيديه ابن ابنه ، وحين توقف أمام بائع الفاكهة وظل يناكف فيه ويسبه ليأخذ البطيخة بنصف ثمنها ، تأهبت لإنهاء مهمتى ، واقتربت منه قائلاً : " لساك واطى زى ما انت يا قاتل " ، فرد بدهشة : " وانت مين يا أسود الكلب؟ " فاستكملت ويدى تتحرك داخل ملابسى : " ألا تتذكرنى يا شقيق أمى؟ " وأخرجت الطبنجة في خفة وأطلقت أربع طلقات داخل رأسه.

عندما وقع على الأرض غارقًا في دمائه صرخ ابن ابنه بجواره ، وسمعت شيخ الجامع يتوسلنى من المئذنة قائلاً : " متقتلش العيل ".

نظرت للصغير وبكيت من الرعب الصادر من عيونه ، وأطلقت الرصاصتين الباقيتين في رأسه فخر صريعًا بجوار جده ، تجمع الناس حولى وأحاطنا المخبرون وقبضوا علىّ وأحالونى للنيابة.

داخل حمام المحكمة قمت بإزالة الحبر الأسود وأصبحت رجلاً أبيض فأبطلت شهادة الشهود ونلت البراءة ، وعدت إلى منزلى وتزوجت من بيت "عتمان" وأنجبت عشرة أولاد وفتحت المقهى وعشت كالملك ، لا يملأ عينى أى ضابط أو شيخ منصر أو قسيس ، فأنا أعرفهم كلهم مرتشين وظلمة.

عاشرت نساء الحى الفواحش وشربت الحشيش فى صحبة رجالهم ومضغت الأفيون قبل نومى ، وكنت أفلت كل مرة بأعجوبة من محاولات قتلى ، ومع ذلك أنتظر الموت طوال الوقت ، زوجت أبنائى وأنجبوا رجالاً يمكنهم الأخذ بثأرى إذا تمكن أبناء "مخيمر" من قتلى.

الشيء الذى أستعجبه حتى الآن ، كيف تمكن الجميع من مطاردة "مينا" ليجبروه على تغيير دينه؟ وما الذى دعاه إلى فعل ذلك؟ وهل تحتاج الحياة إلى كل هذه الألاعيب حتى ننجو من مكائدها؟

الكل يعلم أن زوجته تعاشر "مختار" البلطجى ، ولا يستطيع أحد أن يقيم عليها الحد ، إنه جنس النساء الملعون.

حتى زوجات "زايد" والشيخ "ميهوب" يخرجن من الحى ويعاشرن عشاقهن كلما اشتقن إلى النكاح ، ومع ذلك ينام الجميع آمنًا في بيته مكتفيًا بالنميمة.

اليوم غادرت مبنى النيابة وتركتهم ينفذون باقي خطتهم كالكلاب وعدت للحى متسائلاً :
" ايه اللى عمله المسكين عشان تحمله الدنيا الظلم ده كله؟ "

سأمر عليه الليلة بالقسم وأشترى من فلوس أولاده أكلاً وسجائر ، وأوصي "سوسة" وأولاد القحايب الذين يملأون التخشيبة ليحموه ، عندما أنظر في عينه أتذكر أمى وجدتى وأبى الذين كانت نظرة واحدة من عيونهم كفيلة بملء روحى بالرضا.

" واش "

أدى اتصال "حياة" بتليفونى أثناء رجوعي من القرية إلى عودة روحى ، وسمعت صوتها المتدفق قائلاً برقة : " هسيب المدينة وأسافر للشط لمقابلة زوجة أيمن ، مش هتأخر عليك ، سبت مفاتيحك بطاقة النور اللى فوق باب الشقة ".

أغلقت السماعة وهى تقول ببهجة وسخرية من ذاكرتى المفقودة : " اوعى تنسى نفسك في القرية! "

اتجهت مباشرة إلى مبنى الصحيفة لمقابلة رئيس التحرير ، أبلغوني بضرورة أخذ موعد لمقابلته ، أعرف أنه لا يرد على تليفونات أحد باستثناء زوجته وأصحاب الحظوة والسلطان.

تحججت سكرتيرته قائلة : " مش ممكن تقابله إلا بموعد سابق .. أمامك شهران على الأقل " ، كنت أرغب في عمل ثابت يساعدنى على الخروج من حالة الجمود التى أعيشها ، وأثبت لـ "حياة" أننى رجل يمكنها الاعتماد عليه.

جهزت نفسي لتعهدى بالكتابة الدائمة لجريدته ، والتزامي بالتعامل عن طريق النت إذا لم يرغب فى حضورى ، لكنه مشغول إلى أخمص قدميه في الصفقات والبزنس ، إذ كيف لكاتب مغمور مثلى أن يحظى بمقابلته؟!

بدأ حياته كمراسل لأخبار الحوادث وأصبح بقدرة قادر مسئولا عن أخبار الوزارة ، ومن يومها يعمل له الجميع ألف حساب ، رشحته السلطة لتبوء المنصب الكبير ، فقطع علاقاته بأمثالى ، لكني مازلت طامعًا في إحياء ذاكرته ، عله يتذكر أيام الكرب التى كنت أعيله في شقتى المتواضعة بجوار الجامعة.

حين خرج من مكتبه ونظر تجاهي وتجاهلنى أحسست بالقهر ، ابتسم لصحفية شابة تسير وراءه بسرعة غريبة وتحدث مع الجميع وفى التليفون كالطاووس.

حل الصمت على الصالة وهو يلقى بأوامره شمالا ويمينًا ، لم أكن أتصور يومًا أن أقابله وجهًا لوجه دون أخذى بأحضانه والابتسام في عيونى.

تعاطفت معه رغم ارتكابه جرائم في حق زملائه ، كنت أجد لوشايته تبريرات منطقية بسبب فقره وتطلعاته ، لكنه نسى الماضى ولم يعد لديه الوقت لمبادلتى الابتسامة ورد ديونى.

تركت المبنى ونزلت للشارع غير عابئ برؤيته وجلست على أقرب مقهى محاولاً نسيان وجهه.

الآن لم يعد لكل هذه الذكريات معنى ، فذهابي للقرية ليلة الأمس أعاد جزءًا من الثقة إلى نفسى ، حتى غياب "حياة" جعلنى أفكر بطريقة مختلفة ، يمكنني أخذ أموالى وفتح مكتب صغير للنشر والترجمة أو إعادة المبلغ إلى عمى وإخوتى ومشاركتهم زراعة الأرض ، لكنى لا أدرى كيف سأترك هذه اليمامة وحيدة ؟

عندما بدأ الليل يسرح على المباني وشهدت نور القمر الساطع نسيت وجه رئيس التحرير وتصورت نفسي في حضنها أبلغها بنجاحي في مقابلة إخوتي وإذابة الجليد الذى تراكم بفعل الهجر.

حاسبت القهوجي وسرت حتى المطعم المجاور ، أكلت سندوتش فول بالبيض فامتلأت معدتى عن آخرها ، فقررت العودة إلى شقتها.

في الطريق ، طهَّر الفضاء أعماقى من الروث الذى علق بروحى ، ولا أدرى لماذا عدلت مرة واحدة عن قرار العمل كصحفى أو العودة للقرية؟ كأن في عودتى إلى منزلها سحرًا يعيد براءتى ويفجر طاقتى لأعود طفلاً راغبًا فى معرفة سر الحياة.

انتظرت دقيقة أمام الباب محاولاً اكتشاف مكان المفتاح ، وحين نظرت لطاقة النور التى تعلو الباب انشرحت أساريري ، فدخلت مكتبى مباشرة مقررًا كتابة الأحداث التى نسيتها في حياة المرتد.

" ملاك "

على سلالم النيابة كان "سعد" ينتظر والدى بالسكين ، اتفق مع أمى وخالى وعمى والقس والشيخ ، على طعنه وسط الزحام والفرار من الحى.

حين شاهدته مقيدًا في سلاسله محنى الرأس مرعوبًا من المحيطين بجسده ، بكيت ولم أنظر داخل عينه ، ومع ذلك فرت دموعى على غير إرادتى ، كنت أعلم بخطتهم ورفضت أمى أخذي إلى النيابة ، فركبت الباص وانتظرت أمام الباب كى أراه من بعيد.

شاهدت "سعد" واقفًا كالثعلب فاختفيت خلف الكشك المزدحم بالبشر ، وانتظرت آملاً حمايته من غدرهم ، وعند خروجه وسط العسكر من الباب ، هجم عليه ، فأسرعتُ الخطى وتلقيت الضربة بدلاً عنه.

نزفت دمائى على الأسفلت وصرخ في المحيطين ليتصلوا بالإسعاف ، أخذنى في حضنه ، وملس على جرحى بيديه ، وأصر على الوقوف بجوارى حتى حضور المسعفين.

لم يتحدث كثيرًا ، ولكنه قال : " سامحنى يا ملاك " ، واعترف للعسكر بأنه ارتكب الجريمة بنفسه للتشفى من غدر زوجته ، وحين أكد صاحب الكشك أنه شاهد "سعد" وهو يطعننى ، رفض واعترض وطلب مقابلة النيابة للاعتراف بجريمته ، حماية لمستقبل أخى.

رفضتُ أقواله وقلت للعسكر لم يفعلها ، وقبل صعودى السيارة صرخ الضابط : " مش مهم مين القاتل مادام الجميع بيفتخر بجرائمه ، من حقنا دلوقت قيد الحادثة ضد مجهول أو حبسهم جميعًا للاعتراف " ، عندما خرجت من المستشفى بحثت عنه كثيرًا ولم أعثر على جسده ، لكن طيفه مازال يلازمنى .

لا أدرى لماذا أتذكر الآن وجهه وهو يحملنى كل أحد لنزور الكنيسة ، كانت أمى تعامله برفق ولم تتطاول عليه أو تسبه كعادتها هذه الأيام.

أتذكر الطريق الطويل إلى بلدته وهو يصر على حملى ليرينى أرضه التى ورثها عن أجداده ومازال أبناء عمومته يزرعونها ، ركبت مع أقرانى الحمارة وحصدت معهم القمح وتوطدت علاقتى بهم وأصبحوا أصدقائى ، أشتاق دائمًا إلى سماع أصواتهم وأحس بحبهم وحنانهم يلازم روحى ، ومع ذلك انقضت هذه الأيام ومرت كالأعياد.

رفض "سعد" مشاركتى هذه الزيارات مصدقًا كلام أمى بأن القرية لا يوجد بها إلا البق والفئران.

لن أنسى لمسة يديه كل ليلة وهو يضعها على رأسى ليرقينى ، كنت أظل مستيقظًا بسريرى حتى سماع صوته ، وحين تلامس أقدامه أرضية حجرتى ويقبل رأسى أحس بأننى أملك العالم.

كيف حدثت كل هذه البلاوى في حياتنا؟ ومن السبب في تلك المصائب؟ وكيف فشل فى مواجهة هذه الأزمات؟ الآن يتآمر عليه الجميع ، لكني لا أستطيع كراهيته؟ حتى أمى رغم كل ما تفعله فإني أحس بأنها مظلومة ، لكن الأشرار الذين يملأون الحى يلوثون عقلها بأوهام عن نكرانه وخيانته.

لا أستطيع نسيان مشاركتهم الاتفاق على حرق الشقة التى عاش فيها بعد هروبه ، في هذا اليوم سحبنى "سعد" وعمى من يدى وقابلنا أمى وخالى أمام المنزل وصعدنا السلالم ونحن نحمل السكاكين ، وعندما وصلنا عند الباب خرت أقدامى ووقعت على الأرض ، لكن "سعد" دخل في الباب بجسمه الثقيل فانفتح على مصراعيه.

حملونى ودخلوا الشقة حتى لا يرانا أحد ، ومن حسن الحظ أنه لم يكن موجودًا ولم يكن بالشقة أى أثاث ، وحين سألنا عنه الجيران قالوا : " هرب من يومين".

لا أعرف كيف أسامح نفسى على أفعال كثيرة ارتكبتها ضده ، لكنى أتذكر دائمًا كلماته الرقيقة : " الرب يسامح ويغفر ، المهم أن نتوب ونعود إلى الصواب ".

يارب خفف وحدته وأبعد عنه أولاد الحرام ، يارب أنا طفل صغير وأرغب في سلامة والدى ، فلا تحرمنى أمنيتى.

" يتيم "

عند يقظتى في الصباح وجدت رسالة طويلة على تليفونى تؤكد اضطرارها للسفر مع أخيها وزوجته خارج البلاد ، طلبت منى فتح درج مكتبها الأوسط لتسلم حقوقى.

جلست أمام مكتبها مترددًا ، وأمسكت مقبض الدرج بيدى المرتعشة ، ووجدت بداخله خطابًا مكتوبًا عليه اسمى وبداخله كارت فيزا ورقم حساب بنكى ورسالة صغيرة مكتوبا فيها : " المبلغ الذى تسلمته منك موجود بفوائده بهذا الحساب ، لم أصرف منه مليمًا واحدًا ، يمكنك الآن إعالة نفسك ".

ماذا جرى؟ وهل تنوى الهجرة للأبد وتركى وحيدًا؟ أهكذا انتهت علاقتنا؟! دقات قلبى تتسارع والدم يجف بعروقى وأحس بهروب مشاعرى من أعماقى.

تركت الأوراق على سطح المكتب ودخلت الحمام وعدت مرة أخرى على غير إرادتى للنوم ، كأن شخصًا غيري معنيًا بمضمون رسالتها ، وحينما استغرقت في النوم شاهدت نفسى أجرى أمام مسجد القرية والكلاب المفترسة تلاحقنى ، وعندما وقعتُ على الأرض في أحد الأركان بدأتْ في نهش لحمى.

لم ينقذنى من أسنانها إلا صوت أمى التى خرجت من منزلنا وطارت كالبرق حتى طاردتها وصرخت فيها لتبتعد ، وقفت أمام باب الجامع تنتظر رحيلها ، تجاهلت عيونهم وأسنانهم وطهرت الجرح ومسحت الدم عن وجهى وسحبتنى عائدين إلى منزلنا ، رفعنى أبى وإخوتى بحب على سريرى والتفوا حولى كملائكة وألقوا بالورد على جسدى.

كانت رائحتهم تشبه رائحة الموتى ، وقتها دخل عمى الحجرة قائلًا بنبرة حادة : " اخرج من المنزل يا جاحد ، تسلمت حقك ولم يعد لك وجود ".

عند يقظتى فى الصباح جلست إلى المكتب محاولا تسجيل الحلم لعلي أوقف انهيار الفواصل داخل نفسى ، فيجوز أن شخصيتى تأثرت بحياة المرتد الذى أسجل حياته ، لكن صوت التليفون أعادنى إلى الحياة ، وتفاجأت بصوت أخى مرددًا اسمه ومتسائلاً عن حالى ، فعادت الروح إلى جسدى ، وفجأة انقطع صوته ، وأعدت الاتصال برقمه محاولاً استكمال حديثه ، لكن صوت المرأة الإلكتروني ردد معتذرًا لغياب شبكة المحمول.

فكرت أن أكتب لها رسالة ، لكنى ترددت ، لرغبتها فى تركى لأعتمد على نفسى ، وإلا فلماذا تركت المبلغ باسمي في البنك وهاجرت دون أن تفاتحنى ولو مرة واحدة في قرارها؟ ومع ذلك اتصلت برقمها فأفادتنى الشبكة بعدم وجود هذا الرقم بالخدمة.

الدقائق تمر بطيئة وأنا متردد بين دخول المطبخ أو الخروج من الشقة ، أدرت اللاب على موسيقاها المفضلة " الحدائق" وجلست أستمتع بألوان اللوحات التى تتوسط الحائط.

ظهر النور من لوحتها المعلقة على الحائط والتى رُسمت على شكل كرة أرضية والظلام يحيط بقلبها ومع ذلك ملأ الشعاع الذى خرج من نقطتها الوحيدة البيضاء ، الفضاء المظلم بالضياء.

الليل بارد والسماء توشك على المطر ، شجعني ذلك على مغادرة الشقة والذهاب إلى المقهى عسى أن أجد في براح المدينة شيئًا يخرجنى من عزلتى.

مرة أخرى فوجئت باتصال أخى ، سألته بلهفة عن إخوتى ودراستهم ، فرد بود : " احنا كلنا بخير ، المهم أنت ، عايش إزاى؟ " وعندما استشعر نبرة صوتى الحزينة أصر على حضوره للمدينة لرؤيتى.

لم تكن هناك طريقة للرفض ، فقلت : " مستنيك " ، أعطيته العنوان وشرحت كيفية وصوله وأغلقت السماعة مستغربًا تلاحق الأحداث.

" سعد "

أمـى هـى أغلـى شـىء فـي الوجـود ، أعطتنـى كـل شـىء ولـم تبخـل علـىَّ بـالأموال أو النصيحة ، كيف أتركها تعيش وحيدة ولا أدافع عن حقوقها حتى ولو كان أبى خصمها؟

الجميع أكد أنـه مجنون وفاسـق ، وإلا فكيف ترك دين يسوع وانتقل إلى دين آخر؟ لم يفكر في مصيرنا ، أخذته العزة والكرامة وقرر التضحية بنا وإلقاءنا في الشارع نصارع أبناء السوء دون حماية.

من وضعنا في هذا المأزق؟ حسبتها بينى وبين نفسى مائة مرة ، فلم أجد حلاً إلا بالتخلص من حياته ، عندما يرانا الناس كأيتام سيعطفون علينا ، لكن وجوده طوال الوقت سيجعلنا أضحوكة " للي يسوى واللي ما يسواش ".

لم تقل أمى أو خالى هذا الكلام ، وأتصرف بمحض إرادتى وضميرى ، لا يهمنى أنه ربانى أو صرف علىَّ حتى أصبحت رجلاً ، فالجميع يفعل ذلك ، لكن أن يتركنا ويهرب من استكمال دوره ، فتلك هى جريمته التى لن يغفرها حتى موته.

لن أكتفى بعقاب المحكمة ، فلن يهمنى حبسه أو إيداعه مستشفى المجانين ، يجب الفتك بجسده لأنه السبب في ضياعى.

كنت أنعم بالعيش الهانئ ، أنام حتى الظهر وتتعاطف أمى مع أزماتى ، تغسل ملابسي وتكويها وتجهز طعامى ، وتتركنى ألعب الطاولة والكوتشينة طوال النهار مع أصدقائي ، وأرافق البنات وأتجهز لليلة عُرسى ، وفى لحظة اختارها الجبان دمر كل شيء.

لا يهمنى تعاطف أخي "ملاك" مع جرائمه ، عندما يكبر سوف يقدر ما أفعله ، بعد حصولنا على المنزل والقيراطين ، سأبيعهما وأفتح مشروعى وأتزوج ، سيعمل في شركتي ونشترى من شقانا فيلا كبيرة لتعيش أمى كملكة ، لا يهم أن "بقدونس" تهرَّب من الشهادة ، فهو مجرم مثله ولا يهمه إلا المال ، فمازال "مختار" ينتظر أوامرى ويمكننا ترتيب خطة للانقضاض عليه بتخشيبة القسم أو زنزانة السجن.

الغريب أنه جاءني ليلة الأمس بالحلم وتوسلنى أن أعود من هذا الطريق حتى لا يضيع مستقبلي ، لا يعرف أنني ضللت الطريق ، ولن يعيدني لصوابي إلا موته ، حاول إطعامى الشهد لكني رفضت.

قبّل قدمي وكاد أن ينتحر ليريحني ، لولا "بقدونس" الذي ظهر فجأة ومنعه قائلاً بحزن : " اتركه يعمل اللى هو عايزه ، دا ابن عاق ولا يستحق عطفك ".

الليلة سوف أسهر عند عشيقتى "ثريا" وأعاشرها وأرسم معها الخطة الجهنمية للتخلص منه.

تساعدني عشيقتى لألتحق بعصابة الأوباش التى تحتل النواصي وتوزع البرشام والبانجو على الشباب ، منذ أسبوع قالت بحب ينبع من عينيها : " مش هتوزع بنفسك ، هتراقب الشباب على النواصى علشان المخبرين ميقبضوش عليهم ، هيديك مختار خمسين جنيهًا في الليلة ، وهيساعدك علشان تاخد ورثك ".

سأتحملهم جميعًا حتى أنتهى من مهمتي وأبيع الأرض وأحصل على المال لأبدأ مشروعى ، أعلم أن عمى يكرهني ، لكن ارتداد أبى جعله يقف حائرًا بين التخلص من أخيه لأكل نصيبه بمنزل العيلة فى بطنه أو غفران أخطائى ، في الفترة الأخيرة مال ناحية موقفي كأنه يسترضيني.

رغم أن القهوجى حذرني لأننى سأدخل السجن ويقتسم عمى وخالى ثمن القيراطين ، لكنى لا أبالى بأي شيء ، فيمكننى التخلص منه بمساعدة "مختار" و "ثريا" دون ظهوري في المشهد.

قال البلطجى في لقائنا الأخير : " ممكن نمزع جتته ونلّبس القضية لملاك علشان نرتاح من الاثنين " ، من وقتها وضميري يؤنبني فـ "ملاك" مازالاً طفل ولا يمكن تحميله بهذه الأفعال.

فى تلك الليلة تركني "مختار" مع "ثريا" قائلا : " فكر في الموضوع " ، وعندما خرج من الباب رصّت عشرة حجارة وغمستهم بالحشيش وشربنا حتى الثمالة.

حين دارت رأسي شاهدتها تخلع ملابسها وترقص عارية ، قمت بتقطيع جسدها ، والتهمت حلمات ثديها التي تخر نضارة ، فصرخت وبركت فوقى واغتصبتني ، ولم تتركني إلا جثة هامدة.

لا أدرى إن كانت قد استوقعتنى تلك الليلة على أوراق بيضاء أم كانت تمسح يدى بالمناديل من آثار حليبها ، أعتقد أن كل هذه خيالات ، فـ "ثريا" تعشقني ولا يمكن أن تخونني أبدًا مع أحد.

" ريق "

أجلس وحيدًا على المقهى ، متذكرًا تعاويذها ورقيتها التى تطهرني وتعيدنى إلى سيرتي الأولى ، تخلصني حروفها من ميراث وماضٍ مُلِئ بالغل والأحقاد ، وتجعلني أشعر بالسلام ، كانت تجلس بجواري وتردد كلماتها المنيرة قائلة : " يجب علينا قتل رغبات الشهوة والتملق والنفاق والغدر ، يجب أن نحب من أجل الخلاص ، فالأولاد والمال والسلطة متع زائلة ولا تكفي لإسعاد قلوبنا ".

أتذكر صوتها الدافئ وهى تردد في خلوتنا أن أرواح البشر تمر بمرحلة البراءة التي تبدأ مع الولادة ، وفي مرحلة الطفولة تمتلئ نفوسنا بالتعلق ، وتأتي مرحلة الحسرة متواكبة مع بلوغنا سن الشباب التي تنتهي باليأس والإحباط ، ثم تنتهي الرحلة بتحولنا لزاهدين كى تخرج الروح إلى بارئها متخلصة من ذنوبها ثم تعود كبذور الحب في الأراضي الطيبة لتعيد إنتاج الخير.

تأتينى كلماتها كصدى الصوت قائلة : " هكذا دواليك فدورة الإنسان كدورة الزرع ".

أغفو قليلاً وأراها تجلس بجوارى مستكملة : " في العصر الذهبي بدأت حياة البشر وعاش الإنسان براءته ، ولا يمكن لأرواحنا أن تصعد إلى الروح العظمى إلا إذا تخلصت من ميراثها السيئ وتطهرت ، وحين يملأ الصفاء قلبك عن آخره ، تعود كما خلقك الله ويظهر قلبك لمن حولك كالحليب ، حينذاك ستنعم بدورة حياة أخرى ".

هاجرت في النهاية وتركتني أسير حكمتها التي تجعلني أعود مرة أخرى كإنسان يحس بالحب ، ملأت روحى بالعشق وهى تقوينى في مواجهة اليأس قائلة بثقة : " لا يهم الفشل أو النجاح ، فالإنسان غير مسئول عن النتائج ، المهم أن نتشبث بالأمل ".

مرات كثيرة دربتني على مقاومة الشر وهزيمته واستعادة مرحلة البراءة كي تنعم روحي بالأمتنان.

أخرجتني مكالمة أخي من فضائها وسيرتها ، ومع ذلك حاولت العودة إلى رحابها ، لكن مكالمة أخرى من صديقتها التي سألتني عن حالي وسخرت من عزلتي ، أعادتني لتذكر عيونها وهى تطاردني لأستسلم لإغوائها.

شاركتها "ثناء" كل شيء باستثناء إيمانها بالدين الجديد ، لازمتها منذ الطفولة وتعرف كل صغيرة وكبيرة عنها ، لكنها رفضت السير في طريقها الجديد ، مدعًية بأنها لم تكتف بعد من متع الحياة.

أصبحتِ الآن محررة بإحدى الصحف الكبيرة وتكتب عمودًا أسبوعيا يتيح لها علاقات واسعة مع كبار المسئولين ويفتح أمامها أبواب الرزق.

فوجئت بعرضها للعمل في جريدة "الفرعون الأخير" التي يمتلكها أحد رجال الأعمال الذي يدعم الثقافة والفنون ، كأنها تحاول بعرضها أن تنتشلني من الضياع.

ألحًت فى مقابلتي بمكتب الجريدة فى الصباح لتسلم عملي ، جعلتني ثقتها الواضحة وضحكتها الخبيثة إلى الانكماش وترديد كلمات : " حاضر ، حاضر يا ست الكل ".

كانت تقابلني في حضور حبيبتى وتنظر من خلف نظارتها الشمسية بنهم فى عيوني وتبتسم كأنها تسخر من استسلامي لمصيري المربوط بحياة أمرأة واحدة.

استغرقت مكالمتها نحو ساعة كأننا نتواصل بشعاع مخفي يرغب في المزيد من الاندماج ، لا أدري كيف استسلمت لعرضها كأنني أبغي المرور في طريقها لمعرفة خباياها ، جعلنى صوتها الناعم للإحساس بالضعف ، ودعتها في النهاية وأغلقت السماعة.

الشىء المزعج أن حكايتها مع صديقى الذى كان يعشقها ويتمنى سماع صوتها ومات منتحرًا بسبب تجاهلها اختفت من أعماقى ولم أحس بتأنيب الضمير أثناء مكالمتها وأنا أتخيل حلمات نهديها وشفتيها الممتلئتين غارقة فى فمى.

طردت كل هذه الذكريات وعدت للمنزل محاولاً معرفة ما جرى في حي المقتول الذي تركته أسير جفاء حي الفواحش الذي لا يعرف الرحمة ، متمنيًا معرفة مصيره بعد الأحداث التي وقعت أمام النيابة.

أخذت حمامًا ساخنًا ونمت دون أن أدري على سريري المجاور للمكتب.

تيقظت صباحًا ناسيًا أحلامي في إشارة لاستقبال يومي الجديد المملوء بالمفاجآت ، وكأن الأحداث الجديدة ستغير حياتي ، وبالفعل شكلت مقابلتي لـ "ثناء" في الجريدة مفاجأة سارة بعد توقيعى عقدًا للعمل مقابل مبلغ شهري محترم.

ترجلتُ بجوارى كأخت حتى جلست إلى مكتبي وودعتني خارجة من الحجرة ، أمسكتُ بإحدى الجرائد محاولا الاطلاع على الأحداث ولم تشغلني إلا صورة طفل يقف وسط جماهير ويلوح بيديه ساخرًا من حشود ضخمة يرفعون أياديهم للسماء كالمصلوبين.

تجاهلت أصوات المحررين الذين يرحبون بوجودي ، وطاردتني مرة أخرى الأحداث المتلاحقة التى تجرى في حى "مينا " المسكين ، لكني فوجئت عند انتهاء العمل بدعوة "تناء " على العشاء.

سرنا صامتين حتى المطعم القريب من مبنى الجريدة ، ودخلنا جالسين إلى ترابيزة بعيدة محاولين اكتشاف لغز علاقتنا ، تحدثت بحرية عن طلاقها الأخير وزوجها الأول الذى مات منتحرًا وعلاقاتها المتنوعة ، ورغم ذلك كانت صورة "حياة" تلاحقنا كلما تحدثت عن أزمتي ، وسألتني فجأة : " علاقتكوا انتهت ازاى؟ " ورغم مفاجأتي بسؤالها لكني رددتُ بأدب : " حياة لسة صديقتي ".

قاطعتني بضحكة عالية وقالت : " أنت متعرفش أنها هاجرت وانفرغت لخدمة الرب " ، فاستكملت بنفس هدوئي : " أعرف ".

طلبت ربع فودكا ، وشربنا حتى الثمالة ، وحين اقترب الليل من منتصفه ، قالت بجراءة : " هتبات معي النهاردة يا دنجوان ، فلن تترك أنثى وحيدة في ليلة باردة ".

حاسبتُ النادل وارتدت معطفها وعلقت يديها في يدي ونزلنا السلالم فى هدوء حتى وصلنا إلى سيارتها الممتلئة بالكراكيب فقالت متلعثمة : " متبنيش انطباعك عن شخصيتي بالجرائد والأوراق المبعثرة " ، تجاهلت ملاحظتها ونظرت لأحد المتسولين مندهشًا من ألوان ملابسه.

أدارت مفتاح السيارة وانطلقت مملوءة بالنشوة ، وعندما وصلنا إلى العمارة التي تقطن فيها والممتلئة بالمكاتب وشركات السياحة قالت : " اتفضل يا أستاذ ".

صعدنا الأسانسير صامتين ودخلتُ شقتها كملكة ورحبت بوجودى مرددة : " اتفضل ، اتفضل " ، نظرت من حولى فى البهو الواسع معتقدًا بأنى داخل قصر وسألت نفسي : " هل يمكن للكتابة أن توفر حياة رغيدة هانئة بهذا المستوى الفخم؟! "

خلعت ملابسها ودخلت الحمام وعادت حاملة قنينة خمر كبيرة في يديها وصرخت : " هنشربها كلها معاى " ، أعطتني ظهرها ووضعتها على فمها ، ثم استدارت وهي تترنح بهستريا.

ارتمت على حجري وهى تتجرع الخمر كالماء ، وطالبتني بأن أحكي عن أبطال قصصي ، لامست شفتي بيديها الناعمتين قائلة : " دوّقنى طعم قبلتك يا بارد ".

انفتح نهر الشهوة في عروقي ولم أعد أدرى بحالى ، تقلبت فوقها وهي تصرخ مفضوحة ، وحين انتهت مني ، جلست وحيدة كأنها مذنبة ولم أتمكن من الاقتراب من جسدها ، كانت هاربة إلى عالم مملوء بالصمت المقفر ولم أعتقد يومًا أنني سأعيش برحابه.

" زكى "

أوامر مكررة ووجوه سوداء كالحة ، وضباط من عمر أولادي يتحكمون فى كل شىء ، كأنهم آلهة لا يهمهم سماع إلا كلمة : " حاضر تمام يا فندم " ، وكأن القسم والنيابة لا يوجد به غيري.

مع صباح كل يوم أحلم بانتهائه ، كأننى أعيش في بحر الظلمات ، بعد هروبي من وجوه الضباط والمجرمين أجلس على المقهى القريب من منزلي أستمتع بوحدتي ، أشرب الشيشة والينسون ، فتلك اللحظات هي أملي لإعادة روحي إلى سلامها.

لم يكن ينقصني إلا معاشرة ورؤية الخارجين عن دين الله ، فخلال الأيام الماضية لم تفارق يدى قيود المرتد ، الغريب أن رئيس المباحث تعاطف مع جنونه ، وكأن الكفر بالله أصبح شيئًا يستحق الشفقة.

فجأة نسى الضابط أوامره بتعليق المتهمين بالأسقف وتشغيل الكهرباء في أجسادهم وسلخ فروة رؤوسهم.

عندما ذهبت إلى مستشفى الأمراض العقلية ارتعبت من صدى الصوت في البهو الواسع ، نظرت فى عيون المتهم وخفت من هالته ، وتساءلتُ صامتًا عن ما يملكه هذا الرجل بقلبه ليجعلنا أسرى روحه؟!

سألته بتلقائية كأنني مسحور : " مش محتاج لحاجة يا مينا؟ " لم يرد ، لكني شاهدت دموعه تذرف من عيونه فاحتضنته وبكيت معه ، وتحدثنا كإخوة لدرجة أني اعتذرت قائلاً : " أنا عبد المأمور ، أنت أكيد مقدر ظروفي ، لو كان عليَّ كنت سيبتك حر وفكيت قيودك ".

لم ينجدني من صمته إلا صوت التمرجي الذي أمرنا بالدخول للدكتور "سمبو".

وجدته بملابسه الداخلية يجلس إلى مكتبه صامتًا كالكرسي وينش الذباب من حوله كأنه يعيش بعالم آخر ، وحين رآني شخر في وجهه قائلاً بصوت عالٍ : " يابن دين الكلب يا كافر ، كيف لم تردعك مصائب الخلق ، سأجعل صراصير المستشفى تأكل عظامك ".

لم يرد عليه وظل صامتًا فسألني بهدوء : " إيه اللى عمله المجرم ده يا زكى؟ " فرددت بحياد : " الأوامر صدرت بعرضه على سيادتكم ".

ارتدى ملابسه كأنه في منزله ، ثم نظر إلينا مكتشفًا وجودنا ، واقترب ناظرًا في عيونه ، وعاد مرةً أخرى إلى مكتبه ، وشهق كأنه يغرق في النور الذي ملأ الحجرة ، وفى تلك اللحظة ملأت عينيه الدموع فجلس صامتًا أمامنا فترةً طويلة كأنه ميت.

فقلت محاولاً إعادته من ذهوله : " دكتور سمبو " ، فرد بهدوء كأنه يتحدث مع كائنات أخرى : " رغم كفره لكنه يذكرني بوجه ابي الذى مات في الوباء ".

قام مرةً أخرى من على مكتبه وأخذه فى حضنه ، وصرخ في التمرجي ليجهز لنا العشاء ، وبعد دقائق معدودة دخل مساعده علينا بصينية مملوءةً بالأرز واللحوم والخضر ، وطلب مني الجلوس معهم لتناول الطعام.

جلسنا كأصدقاء انتهوا للتو من عملهم الثقيل ، وسألني بحب عن أولادي ، وحكى عن حياته القاسية بعد وفاة فلذة كبده ، وقال لـ "مينا" : " عارف أن الدنيا قاست عليك ، لكن ربنا معك ".

تركنا وذهب لمكتبه وكتب في تقريره : " يتمتع بصحة جيدة وحكم متوازن على الأمور " ، وأكد بصوته الأجش متحدثًا بالتليفون مع وكيل النيابة والضابط سلامةَ عقله ، وطلب منهم إخلاء سبيله من المستشفى ، استجابوا إلى أوامره وتحدثوا معي لأعود بالأوراق.

حين عدت من القسم والنيابة بعد توقيعها ، وجدتهم نائمين كالأطفال في سلام ، أيقظتهم مندهشًا من الصمت الذي حل على المكان ، وطلب الدكتور توصيله إلى بيته آمنًا ، قائلاً في وداعه : " ارض عنا يا شيخ مينا ".

أعطاني عشرين جنيها وطلب معاملته برفق حتى إعادته للحي قائلا بحب : " خلي بالك منه يا زكى " ، تركته على أول الشارع وسألته إن كان يحتاج لشىء ، وحين أومأ برأسه علامة على شكري ودعته لأستمتع بالدقائق القليلة على المقهى.

عندما نظرت إليه وهو يمشى وحيدًا في الشارع ، كدت أنادي عليه ليبيت معى ليلته ، لكني خفت من زوجتي ، وقلت لنفسى في صمت : " أين سيذهب الرجل ، إذ لا يعقل أن يعود للحي ، فالجميع ينتظره ليقتص منه؟ " لكني تراجعت وقلت بصوت عالٍ : " رحمة الله واسعة يا زكى ".

الشيء الذي يدهشني أن امرأته وأولاده لم يكتشفوا النور الذي يملأ وجهه ، ولم يشعروا بروحه المملوءة بالسلام ، تجاهل الجميع زهده وبادلوه الكره وأنكروا فى دناءة أعماقه المملوءة بالرضا.

ناديت على القهوجي لأحاسبه وأعود إلى منزلي فمازال أولادي وأمهم ينتظروني كل ليلة ، ولا أدري كيف يتحول الوحش بداخلي إلى عصفور كلما شاهدت وجوههم البريئة.

نعم ... لا يجوز مقارنة أبناء "مينا" بأولادي ، فالفارق كبير بين وحش متحول لملاك ، وملاك خُلق على هيئة إنسان.

عندما دخلت الشقة واستقبلتني زوجتى مرحبة بوجودى خرج أولادى من حجرتهم واحتضنونى ، وشعروا بعيونى المملوءة بالدموع ، فاستغربوا حالى وقالت زوجتى باندهاش : " مالك يابو حسن؟! "

لم أرد ، وجلست معهم حول الطعام صامتًا ، ورغم أنهم يضحكون ساردين ما جرى لهم بالمدرسة والشارع ، لكن دموعى فضحتنى وفوجئت بالتصاقهم فى جسدى ، وانبرت زوجتى قائلة : " إيه اللى حصل يابو ثومة؟ " فنطق لسانى قائلاً : " خايف عليكو يا ولية! "

" ذنب "

عندما حضر أخى لشقة حياة انتابني إحساس بالخزي ، خاصة حين سألني عن مالكها ورغم عدم ردى ، لكن الإجابة المخفية في أعماقي جرحتنى وظلت عالقة على طرف لساني وجعلتني أنظر بسجل حياتي المدهوسة بأسى ، فلا مكان ولا أسرة ولا دخل ولا أصدقاء ، فالصحافة والكتابة لمثلي لا تصلح لأية لحياة مستقرة ، ، ومع ذلك طالبته بالإقامة معى ، فوافق على الفور خاصة عندما علم بوحدتى.

أدى وجوده في حياتي إلى تغيير عاداتي ، فبعد يقظتنا نتناول الفطور ثم أذهب إلى عملي وهو يتجه إلى كليته حالمًا بانتهاء دراسته ليصبح أستاذًا في القلب كدَيْنٍ يرده لأمه التي ماتت بالسكتة ، عندما ذكرني بوفاتها تساءلت عن آخر شخص أو مشهد تذكرته وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة؟

في الطريق الذي نتشارك السير فيه حتى المحطة ، أسئلة وحوارات لا تنتهي حول عملي ودور الكتابة والإنسان ، ومستقبل مسعود وكريم ودور عمي في رعايتهم وأثر غياب أمنا عن حياتنا.

عدت أسمع صوت إخوتي كل يوم وأعرف تفاصيل حياتهم ، اطمأنوا على ظروفي المالية ، وأدى ذلك إلى ارتياح عمي ، كأنه يقول لأمي في قبرها : " لا تخافي يا سماح فرغم الأزمة فقد تمكن من النجاح ، لا تقلقي يا غالية فسوف تتكفل الدنيا برأب الصدع الذي تسببتِ في صنعه ".

كلما سمعت صوته أحسست باعتذاره لأمي ، وأدى وجودي مرة أخرى إلى تجاوزه الأزمة التي تركتها ورحلت.

حين دخلتُ الجريدة في الصباح قابلتنى "ثناء" بوجهها البشوش ، وطالبتنى بالسهر معها بنادي الأدباء الذى يتوسط الميدان القريب ، انتظرت طوال اليوم على مضض غير مهتم بحوارات الصحفيين وشجارهم المخفي على المكافأة وانتهاك الشرف المهني ، لم أرد على تعليقاتهم ، وتجاهلتهم مشغولًا بكتابة أى شىء في أوراقى الفارغة.

اتصلت بـ "علي" حتى لا ينتظرني على العشاء ، ولم أرد على أسئلته الكثيرة وأغلقت السماعة في انتظار لقائها الغامض.

نهاية اليوم خرجت "ثناء" من مكتب رئيس التحرير بهالتها الساحرة واحتضنتني أمام الصحفيين وقبلت خدي قائلة : " كفاية شغل النهاردة يا سيد الملائكة! "

رنت الكلمة في أذني كالرصاصة لأن هذا الاسم لا تعرفه إلا المرأة التي تركت البلاد ورحلت دون اتفاق.

لملمتُ أوراقي ووضعتها في حقيبتي وسرتُ معها بعد إلقاء السلام على زملائي الذين تهامسوا وضحكوا كأنهم يعرفون أسرار علاقتنا.

عاتبتني على تجاهلها طوال الأسابيع الماضية ، وأنهت كلماتها بفجاجة مفضوحة قائلة : " مش يمكن معجبكش لقاعنا الأول يا سبع البرمبة! "

أخذتها في حضني قائلاً ببرود : " أنت ست الستات " ، وكادت ترد قائلة : " يا عشيق صديقتي وخاين صديقك يا بكاش " ، لكنها لم ترغب في إضفاء الحزن على بداية لقائنا.

اتصلت بالكبابجي الشهير وطلبت اللحوم والسلاطات وأعطته العنوان قائلة : " هنتغذى في شقتي الأول وبعدين ننزل نسهر براحتنا ".

سحبتني وسرنا في الشارع حتى شقتها ، وطوال الطريق ظلتْ تتحدث عن حال البلد والعباد مشيرة بأصابعها على بائعين ومتسولين متأسية لحالهم ، وحينما وصلنا عمارتها نادت على البواب ، وتحدثت على انفراد معه كأنها تلقنه الأوامر.

وقفت بعيدا منتظرا نزول الأسانسير ، وحين فتحت أبوابه دخلت قبلي مسرعة واحتضنتني قائلة بتلقائية : " وقعتك سودا معي يا فنان ".

دخلت منتشيةً شقتها ، وأحضرت علب البيرة وصبت لنفسها كأسًا كبيرة قائلة : " في صحة صداقتنا البريئة " ، جلست بجواري كأميرة تملك مفاتيح المدينة وتحدثت عن علاقاتها بالرجال النافذين كأنهم فئران.

وعندما دق جرس الباب أخذت أكياس الطعام من البواب فردتها على الترابيزة دون مقدمات ، تناولنا اللحوم بشهية غريبة في انتظار فتح أحدنا الخزانة السرية لعلاقتنا.

انتهت سريعًا من طعامها ودخلت الحمام ونادت باسمي في سخرية لأدعك ظهرها ، غسلت يدى بحوض المطبخ ودخلت وراءها ملبيًا نداءها منتظرًا تلاقي أرواحنا.

تلذذت بدعك مؤخرتها الممتلئة ، وحين ابتل قميصى واجهتنى بجراءة وأخلعتني ملابسي وتحسست أعضائي بنشوة ، استسلمت لإغوائها فسحبتني إلى البانيو وبركت فوقي وعاشرتها كالمحروم محاولاً مجاراتها للدخول إلى أعماقها المخيفة.

أخذتْ ما يكفيها مني وارتدت روبها المفرود على الشماعة ، وناولتني البشكير المعلق خلف الباب وخرجت مسرعة ، واشارت للشماعة قائلة : " الملابس دى تخص المرحوم جوزى ومن ساعة موته محدش هيلبسها إلا أنت ".

ألقت بعلبة بيرة في يدي قائلة : " أشرب وفك قيودك " ، جلستْ على كنبة الأنتريه بجواري ، ثم قامت فجأة وأدارت الكاسيت على موسيقى "الحدائق" التي أعشقها ونظرت مبتسمة فى عيوني وارتمت على صدري وظلت صامتة لأكثر من ساعة ثم دخلت في نوبة بكاء.

وسألتني بتوسل : " تعمل ايه ست زيى في الأربعين عشان تستكمل حياتها سعيدة؟ "

حكت عن أسرتها التي تواظب على زيارتهم ، وتحس بأن هناك جدارًا عاليًا أقيم بينهم غير عالمة بسبب صنعه أو كيفية هدمه.

سخرت من صديقى المنتحر المنبهر بألوان المدينة العاهرة ، حاولت تبرئة نفسها باعترافها بممارسة الجنس عدة مرات معه لتفك عقدته ، وقالت بصوت حزين : " مكنش عندي حل إلا الهروب من عشقه ، ورغم كده قدر بانتحاره من الانتصار على قسوتي ".

وضعت زجاجة الخمر على فمها وتحدثت عن "حياة" كامرأة محظوظة ، اقتربت منى ودخلت في حضنى قائلة : " أسرتها الغنية ساعدتها على النجاح ، ورغم كده هاجرت لعالم آخر تبشر بدين الرحمة والتسامح ، كأنها تسخر من حياتنا ".

أرادت بحوارها المكشوف عن حبيبتى أن تفجر بداخلى الجرح ، فأنا لم أكن رجلا كافيًا ليسعد امرأة مكتملة ، نظرت في عيونى بصمت قائلة : " راحت تدور عن الأمان في مكان تانى ".

أنهتْ كلامها بتساؤل : " كأن مكتوب علينا العيش كأغراب؟ "

الليل قارب على منتصفه ، ولولا ملابسي المبتلة التي نشرتها في البلكونة لغادرتُ مكتفيًا بحكاياتها الحزينة.

تركتني ودخلت حجرتها ورفعتْ صوت الموسيقى ونادت بدلال : " مستنياك يا سيد الملائكة " ، دخلت عليها فوجدتها مقيدة في سلاسل متدلية على جانبي السرير ، فصرختُ متجهًا لفك أسرِها ، فردت وعيونها تنزف بالدموع : " لما بتجيني النوبة مقدرش أمنع جنوني ، عملت قيود لنفسي ، افتحها واقفلها بريموت جنب سريري " ، طالبتني بفقد الذاكرة ومعاشرتها كغانية ترقص وسط أحراش الغابة.

تحولتُ إلى وحش كاسر يصرخ وينادي من الأعماق متوسلاً عيني المملوءة بالحرمان لأبرك فوقها وأفجها.

هزت رأسها يمينًا وشمالًا ودستْ رقبتها في المخدة وتكرمش شعرها المتهدل فوق وجهها كأنها مهوسة ترغب في التهام جثث البشر.

جلستُ بجوارها مشفقًا عليها ، فطلبتْ مني خلع ملابسي وفعص نهديها وفرجها كرجل ، اقتربت بيدى من وجهها وتحسست جبينها في شفقة ، ولا أدري كيف ملأتني الرغبة لاكتشاف جسد امرأة متوحشة تقيد نفسها بإرادتها؟ ولأول مرة أعاشر امرأة "تفشخ" فخذيها بهذه الطريقة.

صرخت وبكت في آن واحد ، كأنها تتعبد أو تطهر جسدها من الدنس ، بركت فوقها طوال الليل ، وكلما هدأت ، صرخت مرددة كلمات قبيحة ، تتأوه بجنون كلبوة أو زاهدة تعشق رجلها الظمآن.

لبستُ عشرات الأقنعة لنساء باهرات ، وأغراني ذلك لأرتدي وجوه الرجال التى ترغب في اغتصابهم ، وعشت بحضنها كامرأة خلاقة لا يقدر على مواجهتها أعتى الرجال.

مارست الجنس كفلاح يعاشر زوجته الطيبة ، وصياد يلتهم فرج امرأته المشتاقة إلى سماع صوته بعد عودته من البحر ، غيرتُ وجهي وروحي وتحولتُ إلى عاشق ينتظر فجرًا على المحطة آملاً بقبلة من شفاه رفيقته قبل الوداع ، أحتضنها أكثر من ساعة كبدوي يقطع ثدي امرأته فوق البرش ، اندمجت في عشرات الشخصيات التي ارتديت وجوهها كي أخلص جسدها من الخطيئة.

حينما انطلق صوت المؤذن معلنًا موعد صلاة الفجر ابتعدتْ عني ، وداست على الريموت فانفتحت السلاسل وظهرت على يديها وقدميها علامات سوداء ، تركتني كمهزومة ودخلت الحمام تبكي .

كان النهار قد أوشك على الخروج فارتديتُ ملابسي وخرجتُ من شقتها دون وداع.

" ثريا "

خيوط الحي تتشابك في يدي كونى وسيطة بين "سوستة" و"مختار" وزوجات الشيخ والقسيس ، يقدرني الجميع ويعملون لكلمتي ألف حساب.

أعرف كل شيء عن حياتهم ويخافون من فضحي لعلاقاتهم وأسرار عملهم.

يأتوني راغبين تفجير جسدي ، فيحكون عن مصائبهم طالبين مداوة جروحهم ، أستمتع بدموعهم وأسبهم وألطم خدودهم وأمتص عذاباتهم ، ولا ييتئسون من سخريتي .

أيخافون مني؟ أم يعاملونني كحشرة بالية؟ إذن لا يهمهم أن تعرف داعرة أسرارهم.

ومع ذلك يمكنني قيادتهم وإلقاؤهم ببلاعة الصرف إذا رغبت ، حتى "مختار" البلطجي يسمع نصائحى ويأخذ برأيي كشريكته.

أمتلك منزلا واسعًا وأفرشه بأفخم الأثاث ولا يحقد علىّ سوى زوجات "مينا" و"زايد" و"ميهوب" ، كلما شاهدونى في السوق أو عند "سوسو" الكوافيرة ينظرون لجسدي بحقد ، كأنهم يتمنون أن يعيشوا حياتي ، لكنهم لا يعرفون ثمن هذا المجد؟

رغم أن "سوسو" حذرتنى ، لكنى لا أبالى بمكائدهم ، تأتمننى المسكينة على أسرارها كأمها ، تمكنتُ بخفة من توطيد علاقتها بـ "بقدونس" الذى تعبد في محرابها ، يتصل كل ليلة لأرسلها إلى منزله المهجور ليضاجعها كامرأته ، أعلم أن الفاجر الذى ترهب عيونه أهل الحى ينام تحتها كفأر .

الغريب أنه لا يهتم بعلاقتها وعشقها لبائع الفول الذى يُكِنُّ له العداء والكره.

خاوت "سوسو" الجن وسحرت عيون الفوال ولفت حبائلها على رقبته لتوقعه في حبها ، ولم أفهم أبدًا سر حبها لهؤلاء القرويين الأجلاف.

تحبنى كأختها ولا تفشى سرها لأحد غيرى تحذرنى دائمًا من غدرهم ، لكننى كالفراشة لا أرغب إلا في الحب ولا يمكن لأحد هزيمتى.

يعلم الجميع أنى تبوأت مكانتى عن جدارة بعد نومي في الخرائب ، وبيع المفارش والأجهزة في الميادين ومعاشرة المجرمين فى زرائب المواشى ، ولن أترك مهنتي إلا بعد القصاص منهم جميعا.

أعلم أن الضابط ووكيل النيابة ودكتور الصحة يرافقون "لولا" تلميذتي ولا يأخذون أي قرار إلا بموافقتي.

ساهمت في توطيد علاقة القسيس والشيخ ليرتبطوا بـ"مختار" وبعض صبيانه ، لكني حتى الآن لم أتمكن من تغيير عقيدتهم وكرههم تجاه الرجل الذى يمتلئ وجهه بالسلام ويزرع الأمل فى قلوبنا.

عندما رأيته أول مرة يمشي وحيدًا ، نظرتُ إليه كامرأة لعوب ، فحدق في عيني ونطق لسانه دون مقدمات : " روحي لحالك يا ثريا ، الله يساهلك" .

طالبته أن يأتي لشقتي ليصلح فيشة الثلاجة التي تكهرب أردافى ، لم يرد على توسلاتي ، لكننى فوجئت بدقه على بابي فى السماء ، دخل المطبخ دون استئذان وصلح العطل فى دقائق.

وحين همَّ بالخروج اعترضتهُ في الصالة بقميص نومي الشبيكة ، ودخلت مباشرة إلى صدره قائلة بحرارة وأنا أنظر إلى عيونه المسالمة : " طفي ناري يا مينا ، مفيش رجاله فى الحي غيرك ".

حدق في عيني ناقلاً إلى روحي مشاعر الطهارة ، فابتعدت عنه وجلست مكتئبة على الكنبة ، فتركني وخرج من الشقة ناظرًا بعطف إلى قلبي وقال كملاك : " النار يطفئه الحب اللى منور قلبك ومالى روحك ، أرويه بالسلام يا ثريا ".

لو كان الأمر بيدي لأعطيت زوجته وأولاده ثمن القيراطين والمنزل ليتركوه فى حاله ، لكنني أعرف دواخلهم ، فكلهم أشرار أولاد زوانٍ وسينتقمون من فعلتى بعد رحيله.

ليلة خروجه من المستشفى واختفائه ، كاد الجنون يأكل عقلي ، وزرت "الأمين زكى" بالقسم ، وسألت رئيس المباحث عن مكانه ، الجميع رفض حديثى وطالبنى بالابتعاد عن طريقه.

بت كالمجنونة أسأل كل من يقابلني ، واعتقدت أنه سافر إلى بلدته هربًا من جشعهم ، لكن ابنه "سعد" أكد في زيارته الأخيرة أنه اتصل بأعمامه وأنكروا وجوده ، وأكدوا قتله إذا عثروا على جثته حية.

ماذا حدث لحياتي؟

ولماذا أتذكر الماضي الذي اعتقدت أنني حرقته ودفنته ، كنت أعيش حياتي بالطول والعرض ، أعاشر رجال الحي واستمتع بكلمات الثناء والحب.

لكن حياتي تغيرت منذ زيارة المسكين لمنزلي ، كأن في ارتداده ومحاولات قتله شيئًا يشعرني بالذنب ، وماذا فعل ليتكاتفوا عليه للنيل من طيبته؟

ما الذي جعلني أفكر في كل ذلك بعد رحيله؟ رأيته كثيرًا قبل رفضه معاشرتي ولم يلفت نظري سوى السلام المنبعث من عيونه.

بعد ممانعته انتابتني رعشة مفاجئة كأن بجسمي مسًا من الشيطان ، وجعلني ذلك أتحاشى رؤيته وأخاف من ظهوره المفاجئ.

في الأيام التي رأيته بالمصادفة ، يأتيني أبي بالحلم وأسمع صوت أمي التي حُرمتُ من رضاعة نهديها لموتها أثناء ولادتي ، ولا أدري حتى الآن أين رحل والدى الذى تركني وحيدة وسط الحياة؟

لا يهم كل ذلك فمنذ اختفائه أشعر بأنني مكلفة بحمايته ، ولكن كيف أفعل ذلك وأنا عاجزة عن العثور عليه؟ سأذهب إلى "لولا" في الصباح وأكلفها بالبحث في دهاليز رجال الأجهزة التي تعاشرهم .

جاءني هذا الصباح خاطر غريب يطالبني بحماية ابنه الصغير "ملاك" ، فالجميع يعرف عشقه وحبه لأبيه ، ولكن أين أخفيه بعيدًا عن شر "ألطاف"؟

دخلت حجرتي ولملمت قمصان النوم ووضعتها في حقيبة كبيرة ، واتصلت بـ "سوسو" كي تساعدني في غسل حوائط الشقة ، أريد أن أطهرها من روائح الرجال ، لا أعرف إن كان قلبي قد مسه شيء من الهداية أم الكفر؟ لكنني أتحرك بسرعة غريبة بين الحجرات قد تغير مصيري.

* إحساس *

خرجت من شقة "ثناء" هاربًا للشوارع ، ضوء الشمس المنسحب بين البنايات يجعل المدينة كأنها خارجة من عبق الماضي لتستقبل الموت ، شبابيك البيوت مفتوحة والمحلات مغلقة ولا يوجد إلا بائع جرائد يلتف في بطانية وعسكري مرور يغلب عليه النعاس.

سرت وحيدًا حتى موقف الباص ، ركبته في استسلام وغطَّتْ عيني في النوم وشاهدت نفسي بجناحين أطير فوق النهر .

رغم المطر الهاطل من السماء ، لكن العصافير والحمام تجمعوا حولي مرفرفين سعداء بوجود كائن بشري ينعم وسطهم بالسباحة في الفضاء ، وحين رأيت وجه أمي ينادينى ، حطت الطيور معى على سطح منزلنا المملوء بالذرة .

تجمع أهل القرية حول البيت ونادوا علينا ، فهبطنا إليهم وساروا وسط الشارع معنا كأصدقاء ، وتحدث الأطفال الصغار إليهم كإخوة ورفاق ، وحين خرج عمي بعصاه من المنزل ، هربوا جميعًا وتركوني وحيدًا في مواجهته ، فصرخ قائلاً : " أنت جيت تاني يا بوز الإخس ".

فى تلك اللحظة صرخ سائق الباص وزغدني في وركي لأصحو من النوم ، أعطيته الأجرة ونزلتُ مندهشًا من السماء الصافية التي تغطي المباني والشوارع من حولي.

اتجهتُ للشقة وفتحت الباب واتصلت بأخي ، فأبلغني بأنه غادر باكرًا ليلحق بمحاضراته ، دخلت الحمام واغتسلت ولبست ملابس داخلية نظيفة ، وجلست في الصالة أستدعي صلوات وتعاويذ "حياة" كي أطهر روحي ، لكن منظر " ثناء" وهي مقيدة فى السرير لم يبرح عقلي.

أرغبتْ في تلويث روحي وإعلان خيانتى ، أم أن مأساتها وفجيعتها تتجاوز هذه المشاعر ، ولماذا تفعل كل ذلك بجسدها ، ألم يكفها نجاحها في حياتها ، وماذا تحتاج من الدنيا حتى تنتقم من نفسها؟

فجأة امتلأ جوفي بالغثيان وهربت صورة حياة وصوتها من أعماقي ، كأنني فقدت التواصل بالكون ، دخلت حجرتي محاولا تسجيل أحداث حى الفواحش ، جلست إلى المكتب وقرأت كل ما كتبته محاولًا اكتشاف ما آل إليه الحي بعد هروب "مينا" ، لكن الصور انمحت من عقلي ، وضاعت ملامح الأبطال والشوارع من ذاكرتي حتى وجه المسكين الذي كان يملأ أعماقي اختفى دون مبررات.

اندهشت من حالي وتساءلت والدموع تملأ عيني : " أيمكن لما يحدث بحياتي أن يغتال مشاعري ويجردني من أحاسيسي ، ويبلدها ويحول روحي إلى دمية ميتة؟! "

نظرتُ إلى ملابسي باستغراب ، كأني شخص آخر يتحرك داخل الشقة وينطلق من الحمام مكتشفًا أثاث الصالة ثم يدخل المطبخ ليتناول بعض الخبز والزيتون.

تمددت على السرير ودخلت في نوبة نوم عميقة ، ولم أصحُ إلا صباح اليوم التالي على صوت "علي" وهو يصرخ : " الفطار جاهز يا أستاذ ، إخواتك قلقوا عليك أمبارح ".

أثناء تناولنا للطعام سألته عن أحواله بالجامعة ، فتحدث بسعادة عن الطلاب والأفكار والفتيات والمحاضرات وحياته الجديدة التي جعلته يغير رأيه في القرية والمدينة.

غادرنا الشقة وتوجهنا إلى موقف الباص وركبنا في صمت ، نظر كلانا إلى الشوارع التي تجاور كرسيه ، وحين ظهرت شوارع الجامعة اقترب من سلم الباص ونظر مبتسما إلى وجهي قائلًا : "سلام" ، استكملت الطريق وحيدًا مستغربًا من نفسي التي مازالت ترفض الإحساس بومضات الزمن.

حينما وصلت مكتب الجريدة طلب مني الساعي ، المرور على رئيس التحرير فاتجهت إلى غرفته وقام مندهشا من على مكتبه وسلم على يدي بحفاوة وعرفني على شخص يجلس قبالته قائلا : " أمجد بيه ، رئيس مباحث العاصمة عايز يقعد معاك شوية ".

تركني في صحبة الضابط الذي سألني دون مقدمات عن "ثناء" ، قائلا بحذر : " عارف أنك خرجت معها امبارح من مكتب الجريدة ".

رددت مندهشًا : " هو فيه حاجة حصلت؟ " فأجاب مبتسمًا في خبث : " ماتت " ، جلست على الكرسي من هول المفاجأة ، وحكيت بالتفاصيل كل ما حدث ، فقال الضابط بأدب : " من حسن حظك أنها سابت ورقة مكتوبة بخط ايديها تؤكد انتحارها ، واتصلت بوزير الداخلية قبل الحادثة بثوانٍ ، والبواب شافك خارج في الساعة الخامسة صباحًا ".

لولا علاقاتها بالمسئولين لجرجروني بالقسم والنيابة ، واتهموني بقتلها ، لكن المرأة برأتني من دمائها.

أعطاني الضابط كارتًا أسود مكتوبًا عليه اسمه وأرقام تليفوناته قائلاً : " بعد الظهر مر عليَّ فى القسم علشان نقفل المحضر" ، وتركني وخرج من الحجرة دون وداع.

دخل رئيس التحرير متحدثًا دون توقف عن علاقات "تناء" المتشعبة بالمسئولين والصحفيين الكبار وأصحاب النفوذ ، وأنهى حديثه طالبًا أخذ مكافأتي من الحسابات لأنه يريد غلق ملفها ، أخذني بحضنه وبكى قائلاً بحرقة : " مكنتش صديقها الوحيد ".

خرجت من مكتبه صامتًا ودخلت حجرة الإدارة ووقعت على فسخ العقد ونزلت للشارع مندهشًا من نفسي التي ترفض عودة الإحساس إلى روحى.

حين أعياني التعب من الجلوس على المقاهي ذهبت للقسم لمقابلة الضابط الذي استقبلني في حياد ، أخذ مني كلمتين عن المرأة ولم يذكر تفاصيل الليلة الأخيرة ، أمرني بالانصراف بعد التوقيع على المحضر ، قائلاً : " احمد ربنا ، ياما في السجن مظاليم! "

حملت جسدي بالإكراه من أمامه وسرت حتى باب القسم متجاهلا الوجوه المشقوقة للمجرمين والضباط وأمناء الشرطة الذين لم يحسوا بوجود شخص مثلي ، سرتُ بالشوارع حتى موقف الباص وركبته متجها للشقة.

تساءلت طوال الطريق عن كيفية قضائها للوقت بعد خروجى؟ وما الذى جعل روحها تتحول إلى بركة سوداء ولم يتبق بها نقطة بيضاء واحدة تثنيها عن قرارها قبل ابتلاع شرائط البرشام التى أنهت حياتها.

دخلت من باب الشقة وقابلت "علي" متجهمًا ، وقلت ببرود : " هدخل مكتبى ومتقطعش خلوتي " ، فرد باندهاش :" حاضر يا فنان ".

" سفروت "

بالأمس نادانى "بقدونس" وسألني عن "مينا" ، واستدعتنى "ثريا" في الفجر لأعاشرها على سريرها الأبنوس ، مدتنى بنشوة ولذة لم أحسهما فى حياتي ، وسألتني مبتسمة عن مكان المسكين.

حتى أبي ظل نائما بشقة أمي طوال الليل على غير عادته ، وحين عدت لم يهتم برائحة فمي ، وسألني إن كنت رأيته أو سمعت عن وجوده في الحي.

الجميع انتابته حالة من الهستيريا ، كأنهم سيحرمون من الراحة بعد اختفائه ، الكل يثق بعثورى عليه وتسليمه للعدالة!

قابلنى "سعد" في السوق وسألني عنه ناسيًا اختلافى معه ، ورفضى لعمله مع "مختار" في المخدرات ، حتى "بقدونس" استخدمه في المقهى وفشل فى الاستمرار معه مدعيًا أنه ظالم ولص ، كأن ثمن القيراطين اللذين سيرثهما عن أبيه سيحميانه شر الحاجة.

الغريب أن المخبرين انتظروني في الغرزة ، ونادوا عليَّ بأدب قائلين : " البيه ضابط المباحث عايزك ترشده عن مكان المرتد ".

مَنْ أكون ليتصورني الجميع مخاويًا للجن وبإمكاني العثور على الرجل الذي هرب من بُغضهم؟ وهل يصدقون بأنني لم أشاهده إلا مرة واحدة ، يومها نادى عليَّ قائلاً : " سلم على أبوك يا سفروت " ، ورغم اندهاشي من تطفله ، لكني رددت بأدب قائلاً : " حاضر يا عمي ".

وعندما ابتعد سألت "بقدونس" عنه ، فرد مندهشا : " ده عمك مينا يا وله ، اللي بيعشقنا كلنا، اطلب منه أى حاجة ولن يتأخر عن مساعدتك أبدًا ".

في الغرزة لم يشغلني إلا العثور على الصيد الثمين ، علَّني أتحول إلى بطل ، حاول أصدقائي إضحاكي والسخرية من إيمان والدي ، لكني لم أهتم ، وانشغلت بالمهمة التي ألقوها على عاتقي ، خرجت غير عابئ بسهرتهم وركبت التوكتك وسرت بالشوارع كالمجنون.

ابتعدت كثيرًا حتى وجدت نفسي بجوار الخرابة التي ينام فيها الأوباش والكلاب الضالة بجوار جسر جهنم.

توقفت على غير إرادتي أمامها ، ونزلت من التوكتك ، وتسحبت في ظلامها لأعمل زى الناس ، ففوجئت بكلاب مفترسة تحيطني من كل اتجاه ، وشاهدت الصبية يحملون السنج ويقفون في طريقي.

سألني أكبرهم دون مقدمات : " إيه اللى جابك يا سفروت " ، لطخني بظهر السنجة على رأسي ، جن جنوني وانطلقت وسطهم محاولا الهروب ، لكن ضربة شومة زان على رأسي أفقدتني صوابي فوقعت على الأرض فاقدًا الوعي ، أحسست باقتراب أقدامهم من جسدي ، ولمحت سيوفهم اللامعة في ضوء القمر على رقبتي ، وسمعت همسهم لاختيار طريقة مثلى لتقطيع جثتي.

فى تلك اللحظة اقترب "مينا" صارخًا : " اتركوه " ، فنظروا إلى وجهه في ريبة وخوف وابتعدوا متسائلين : " أنت مين؟ " فرد بهدوء : " مش مهم ، سفروت لا يحمل شرًا لكم ".

ابتعدوا عنا وتركونا ، فوضع منديله على جرحي وطلب مني التنفس بهدوء ، أخذني بحضنه قائلاً : " متخافش يا وله " ، حكيت له ما يجرى بالحي ، تجاهل صوتى وسألني عن "سعد" و"ملاك" ، فطمأنته عليهما ، وسألته : " هتيجي معايا يا عمى " ، لم يتردد وركبنا التوكتك مغادرين الخرابة.

لا أعرف أين سأذهب ، فالجميع يرغب في قتله ، سرت صامتا حتى توقف التوكتوك أمام المقهى ، وشاهدت "بقدونس" يقوم مفزوعًا ويركب بجوارنا ، قائلاً لـ "مينا" : " مش هيمسَك حد تانى ، أنت في حمايتي " ، رد المسكين والبكاء يملأ عينيه : " الحارس هو الله ".

وعندما ودعتهما في حارة الأوباش طلب القهوجى منى نسيان ما حدث ، ولا أعرف كيف وثق بصبي مثلي ، فقلت كرجل : " متخافش يا بقدونس فهو يخصني كما يخصك ".

نظرت من بعيد فشاهدت "مينا" يبتعد عن ظله ، كدت أرجع لأسأله عن مصير المسكين ، لكننى تراجعت لادراكى بإجرام القهوجى.

تذكرت الجرح الغائر وشاهدت الدم النازف من جسدي ودون إرادتي اتجهت إلى الصيدلية ودسست عشرة جنيهات فى جيوب الدكتور الواسعة وطلبت منه تخييط الجرح ووقف الألم.

بعد علاجي أحسست كأن مسًّا من السماء دخل قلبي ، فاتجهت للجامع ، وكان الفجر على وشك الأذان ، توضأت ودعوت الله بالهداية ، رغم اندهاش أبي من وجودي بالجامع ، لكنه لم ينظر في وجهي ، رفعت يدي في خشوع لرب العالمين وقلت بصوت عالٍ : "الله أكبر".

" مفتاح "

مرة أخرى تطالبني فى رسالة مستلمة من رقم غريب بإخلاء شقتها ، نظرت إلى حروفها المكتوبة برقعة غريبة وأعدت نطقها بصوت عالٍ : " سيأتيك شخص محملاً بتفويض لتسلم بيتي ، أخلِ الأثاث وحافظ على ملابسي ولا تترك بالشقة أي أثر لوجودي ".

خرجت من حجرتي وقلت لعلي : " بكره هنسلم الشقة لأصحابها " ، لم يسألني أو يندهش ، لكنه ابتسم قائلاً : " وهنروح فين " ، رددت كمسئول عن مصيره : " هنحط العفش فى البلد ونرجع ندور على سكن تانى ".

كان تجميع أشيائها مهمة صعبة ، لكن صديقي الحلاق ونادل المقهى اللذين ذهبت لتوديعهما اتصلا بأحد مكاتب النقل التي وضعت ملابسها وأوراقها في صناديق وربطتها بإتقان وحملتها فوق السيارة ككراتين الأطعمة والمعلبات.

جلس ممثل جمعية الأرواح هادئًا في حديقة المنزل حتى أنهينا تحميل الأثاث ، اقترب منى بهالته الغريبة ووقع على التسلم وأخذ المفتاح وتركنا ورحل لحال سبيله.

ركبت بجوار السائق مع "علي" وانطلقنا عائدين إلى القرية ، في الطريق اتصل بإخوتي كي يجهزوا الحجرة البحرية لوضع أثاثي ، استقبلونا أمام المنزل ، ودون أسئلة أو استفسار أنهمكوا في تنزيل ورص العفش ، ووضعوا المكتب بوسط الحجرة ملاصقًا لسريري الصغير بناء على رغبتي.

وعندما امتلأت الحجرة بالكراتين ألقوا بباقي الحاجة دون ترتيب فوق بعضها في الأركان ، كأنهم يقولون : " أنت المسئول عن رص حاجات صديقتك ".

أصر عمي على عدم رحيلنا ، ولولا محاضرات علي لظللت بالقرية منتهزا فرصة إلحاحهم لبقائي .

الاندهاش الذي ملأ وجوههم ينتظر مني تفسيرًا لما يحدث ، لكن لساني نطق دون إرادتي قائلاً : " بكره هنسافر لترتيب حياتنا الجديدة ".

تركوني لأنام ودخلوا في حوارات عن مشاكل الأرض والسوق والجيران كأنهم يقولون : " هذه حياتنا وأنت نسيت أصلك ، فلا تنتظر أن تندمج معنا " ، تفاصيل مملة لكنها مهمة لاستكمال حياتهم بنفس الانفعال والحب.

حينما انفردت بنفسي في الحجرة ، عادت صورة "ثناء" وهى مقيدة بالسلاسل في السرير ، ووبخنى صديقى لخيانته ومعاشرتها، حاولت التخلص من أرواحهما العائدة بتكرار تعاويذها ، فرددت على غير إرادتي:" أنا روح مملوءة بالحب والطهارة والخير، أنا روح مغمورة في السلام ".

فجأة انتابتني نوبة بكاء ، وسألت نفسي عن سبب وحيد لاستكمال حياتي ، أليس الانتحار الطريقة المثلى لإنهاء ألمى؟! لم يكن كافيا لإقناع أهلي طوال رحلة حياتي العمل فى الصحافة أو كتابة القصص ، رغم أنها الشىء الوحيد الباقي ، لكنها مهنة غير مقنعة لأحد ، إذ كيف للرجل أن يصحو كل يوم دون أن يتجه لأرضه أو مصنعه؟ وهل للقابعين في المنازل دون عمل يستحقوا لقب رجال؟

بحثت في أعماقي عن أي معنى أو هدف ، فتشت عن نقطة خير واحدة ، عن بقايا مشاعر فلم أجد ، وفى تلك اللحظة جاءتني صورة أمي فدخل النوم في عيوني ، طبطبت على ظهري وطالبتنى باستكمال المسيرة حتى زواج إخوتى.

أيقظوني في الفجر لتناول فطوري ، وبعد الوداع ومشاهد الفراق ، حملت حقيبتي التي تمتلئ بالكتب والأوراق وبعض الملابس ورحلت في صحبة "على" عائدين للمدينة.

في الطريق نبهني إلى وجود شقق مفروشة بجوار الجامعة ، اتجهنا مباشرة إلى الحي المزدحم والممتلئ بالباعة والمحلات ، وجلسنا لنستريح من طول الطريق على مقهى مزدحم ، وسألنا سمسارًا ممتلئًا عن مأوى بحجرتين ، فأرشدنا إلى شقة قريبة بإيجار متواضع ، واتفقنا مع صاحبتها على الأجرة وتسلمنا المفتاح.

صعدنا بكراكيبنا إلى الشقة ، واختار "علي" لنفسه الحجرة الصغيرة وتفرغ لتوضيب الفرش البسيط ووضع ملابسنا في الدولاب ، وترك حقيبتي في حجرتي ونزل مسرعًا ليلحق بمحاضراته.

نهار الوحْدة كئيبٌ ولا يوجد أحد ليواسيني أو يشاركنى اللحظات الطويلة التى ترفض المرور دون الهواجس والذكريات .

لا أدري لماذا يهرب مني أي عمل أو علاقة؟ كأن بروحي شيئًا مخفيًا يرفض استقراري ويجعل الآخرين يفرون من وجودي.

الشارع الضيق الذي تقع فيه الشقة يضج بالمارة وأصوات البنات المرتفعة ووجوههن المفعمة بالحيوية تملأ المحلات وتدعونى لليقظة.

وقفت عصفورة بجوار قطة صغيرة في الشقة المقابلة لحجرتي ونظرا بدهشة للساكن الجديد ، كأنهما ينتظران رؤية شيء مختلف ، حينذاك فتحت إحدى السيدات البلكونة ونظرت ناحيتي في سخط ، فأغلقت شباكي وعدت إلى المكتب محاولا ترتيب الكتب والأوراق المتناثرة.

تمددتُ على السرير محاولا النوم ، لكن صور "ثناء" وصديقها وعمي ورئيس التحرير تلاحقني ، دخل طيفهم الحجرة ومزقوا جسدى بأظافرهم ، أوقعوني على الأرض وأكلوا جلدي بأسنانهم.

نظرت لوجوههم ، ولم تتحرك شفتي بكلمة ودودة متوسلة كى يتركوني وأدى ذلك إلى غيظهم فتكالبوا جميعًا على رقبتى راغبين في تمزيقها.

خرجت صورة أمي من أعماقي فتسحَّب النوم إلى عيني ، ورأيت في هذه الليلة "مينا" وهو يجوب الحي مرعوبا من الجميع.

ورغم أني كنت بالحلم لكني قلت لنفسي : " ما حجم مصائبك بالمقارنة بالبلاوي التي لحقت بحياة المسكين الذي تكتب عن حياته؟! "

" هدهد "

فضَّلوه عنى منذ وعيِى بالحياة ، أحبه أطفال المدارس وأهل الحي واعتبروه قطعة من الحب الذي يجب التمتع بصوته ورائحة عرقه.

رغم أني أخوه الأكبر لكني أحس باحتياجى الدائم لوجوده.

كانت أمي تذهب للكنيسة كل أحد وتطلب من القس أن يباركه ويحفظه ، ولم أسمعها تدعو لي بالستر أو الهداية مرة واحدة رغم أنها كانت تصلي ليل نهار لـ"مينا المسكين".

افتخر أبي بوجوده وسط أقاربنا وأصدقائه ، وأدى وجودي إلى ظهور الشر ، فحين يرون وجهى يصمتون ، كأنني مخبر سأفشي بأسرارهم إلى زوجاتهم ورؤسائهم.

جين التحق بمصنع الكهرباء كاد الغل أن يتطاير من عيني لنجاحه فى اكتشاف طريقة جديدة لإنارة الشوارع دون مولدات ، رغم ذلك كنت سعيدًا بتركه ورشة السيارات التي ورثناها عن والدنا.

وعندما تزوج أحسست براحة كبيرة لشرائه منزلا مستقلا وترك منزل العيلة لأعيش مع أبنائي وزوجتي فى حجراته الواسعة ، ومع ذلك كان الجميع يعامله بفخر ويعتبرونى الأخ القاسي الذي أكل حق أخيه في بطنه على حياة عينيه.

لكن تغيير دينه جعل الجميع يتأسَّى لحالي ويواسيني بسبب جنونه.

جلست أيامًا كثيرة أتساءل عن سبب فعلته المشينة ، فلم يشتك أبدًا من قسوة زوجته أو طول لسانها ، لكن خروجه عن ديننا ثم عودته مرة أخرى ليطلقها كمسلم ومسيحي ، دفعني إلى التساؤل عن محنته مع الفاجرة ، أليس هو أخي الوحيد ويجب القيام بدوري تجاه مرضه أو فقده؟

اختفى بأوكار الحى بعد إفراج النيابة ، وتحول "سعد" و"ألطاف" إلى مجانين يطوفون الحوارى والشوارع ليل نهار باحثين عن طيفه في بيوت أصدقائه وأقاربنا لعلهم يأكلون لحمه.

تشككوا في نيتي وجاءوا لمنزلي فجرًا معتقدين اختباءه في الصندلة ، ولم يصدقوا صراخي بعدم وجوده إلا بعد بحثهم تحت الأسرَّة ، رغم معرفتهم بمكنون مشاعري وحقدي عليه بسبب نعمة الرضا التي ملأت روحه ، لكن زوجته قالت بغل لابنها حين دخلوا شقتى : " الدم بيحن يا واد يا سعد ".

بعد اختفائه تحول الناس في الشارع إلى مجانين ، الجميع بحث عنه بشغف ، كأن بوجوده شيئًا يُكمل نقصانهم.

لم أهتم بهروبه وظللت على عادتي أفتح ورشتي في الصباح منتظرًا سائقي السيارات والتكاتك لأرمم الأعطال التي خربت دوائر مواتيرهم المتهالكة.

أجلس أمام دكاني وأتناول الشاي بالحليب في سعادة بالغة وأتلقى تساؤل الجميع باندهاش : " أخوك فين يا هدهد " ، " مينا غلبان يا وله ، شوفه لحسن يقتلوه " ، " إن لقيته طمنا يا مقدس" ، الجميع يتمنى له الستر ويدعو لي بالصبر.

هجرني السائقون الذين كانوا يتكالبون على الورشة ولم يعد لهم أثر ، أيكون باختفائه شيء يمنع الرزق عن الحي؟!!

تلقيت صباح اليوم مكالمة من امرأة تدعى "جهاد" ، قالت إنها زوجة رئيس المباحث وسألتني بحرقة عن مكانه ، وطالبتني بحمايته وهددتني بالقتل في حالة حدوث مكروه لروحه.

منذ ساعة جلست زوجة القس بجواري وهي تبكي وطالبتني بالإفصاح عن مكانه ، قائلة بصدق وحرقة : " أخذ البركة معاه ، اسع معانا يا ولدى لمعرفة مكانه ".

يوم الأمس مرَّ عليَّ معظم فتيات الحي ونسائه ، وسألوني عن مكان المسكين.

قابلتنى زوجة الشيخ "ميهوب" وصرخت كابنته ولطمت خدودها قائلة : " لما جه بيتى بعد إسلامه اتملت الأوض بالنور ، مكنش بيأكل أكثر من لقمتين ويشرب من القلة شربة واحدة ، ودعا لابني بالهداية والخير".

" فى الأيام دى عدت للصلاة ، وغار الشيخ "ميهوب" منه وقالى بتهكم : " مانا يا ولية متجوزك من عشر سنين ومبتصليش ، ولما بن صليب أسلم ، عرفتي دينك يا بنت القحبة ".

عندما انطلق الرصاص مدويا آخر الليل وجريت مع الناس إلى مصدر الصوت ، وجدنا "بقدونس" غارقا في دمائه ، وتفاجأنا كما قال الشهود بهروب المجرمين بصحبة أخي ، واندهشت لأن القهوجى تعاطف مع مأساته ورفض الشهادة ضده ، فكيف يشارك "مينا" في قتله؟

صرخ ابنه الكبير قائلاً : " عملها ابن مخيمر وأخد بتار أبوه " ، توعدهم أمام الجميع قائلاً : " مش هنام قبل ما اشرب دمهم ، مش هيكفيني قتل واحد ولا اتنين ، هاكل عينين ولاده واخوته ، فبقدونس بمية راجل من عائلة الكلاب ".

لكن وجود المسكين مع القتلة جعل الجميع يرتعب ويبحث عن تفسير لظهوره وسط الأحداث ، تجاهلوا تهديد ابن " بقدونس" كأن مقتل أبيه أمر عادي ، وانشغلوا بهروب أخى متسائلين عن مصيرهم.

ابتعد "عريان" مع أخته وسألني "سعد" قبل رحيلهم : " ممكن أبوى يقتل يا عمى؟! "

نظرنا إلى وجوه بعضنا وأمتلئت قلوبنا بالخوف ، فيجوز أن يقرر الأخذ بثأره ، وبالطبع سيقتلني ويشرب من دمي بسبب حقدي وكرهي لطيبته ورضاه طيلة حياتي.

اقتربت "ثريا" من جسدى وسألتنى بصوت خفيض عن "ملاك" ، قائلة : " انت مش عمه وواجب عليك حمايته؟ " تذكرت فجأة واجباتى وقررت البحث عن ابن أخى المسكين ، فيجوز أن نقتله "ألطاف" لتنعم بالمزيد من حصتها فى الإرث.

" فاصل "

حين مات أبي تحولت حياتي ، ولم يتوقف الشر عن ملاحقتي ، كأنه يغذي رغبتي في الانتقام.

ساعد وجود حبيبتي في حياتي إلى إطفاء النار المشتعلة بروحي ، وأخفتْ أعماقي جروح لم تندمل وظلت آلامي مستمرة رغم ابتسامتي التي لم تفارق عيني.

بعد كل انهيار أقف على أنقاضي باحثًا عن مخرج ، ولم يحرمني الله بركاته ، فرغم المحن المستمرة كنت أجد دائمًا منفذًا كي أستمر حتى لو بالمزيد من الجراح.

ساعدني القدر لأداوي شقوقي ، وبمجرد إحساسي براحة البال كباقي خلق الله ، أتفاجأ بمصيبة جديدة ، كأن خالق الشر لا يعرف إلا طريقي!!

أتخطى بصعوبة المحنة وأتفرغ لمداوة آلامي ، وحين يعود النوم إلى جفوني كباقي البشر ، تفاجئني الحياة بمصيبة جديدة ، كأن تسلسل البلاوى بلوحي المحفوظ لا ينتهي أبدًا.

أتساءل ببلاهة : " ترى لو كان أبي لم يمت ، هل كان مجرى حياتي سيتغير ؟ "

مرة أخرى أقف في مواجهة الطرق المفتوحة غير عالم بخطوتي القادمة ، منتظرًا إشارة الطبيعة لتحديد مصيري الغامض.

ظللتُ بالحجرة التي استأجرناها فترة طويلة ، أقرأ الرباعيات ومخطوطات الحسن والرومي والبرادعي وتفاسير كثيرة للقرآن والأناجيل والتوراة.

وعندما أملُ من القراءة وينغلق عقلي تماما ، أجلس على المقهى المقابل للجامعة ، أستدعي أيام دراستي ، أستعيد شعور زملائي واستغرابهم لعدم سؤال أهلي عني ، خاصة بعد انتهاء دراستنا وعدم السفر مثلهم إلى بلادنا البعيدة.

عيون الفتيات المبهجة التي تمر من أمامي تدعوني لتذكر وميض البهجة والانطلاق الذي ملأ روحي حين دخلت الجامعة وتخيلت أن رائحتهم ستعالج انكساري .

نظرت البنات في وجهي بتأفف وضحكن ساخرات من شعري الأشيب وعيوني الضيقة ، مما دعاني للنظر بعيدًا علني أهرب من حاضرهن.

تخرجني حكايات "علي" آخر الليل من دوائر الظلام ، ويخفف حضوره وقصصه التي لا تنتهي حول تركيب جسم الإنسان ومحتويات المعمل الذين يشرحون فيه أعضاء الحيوانات واكتشافاته المذهلة للأفكار وألوان ملابس الفتيات وتعليقات زملائه وأساتذته إلى عودة إحساسي بالحياة.

خلال هذه الفترة أصبح وجه المرأة التى تنظر من بلكونتها بمثابة الأمل ، توطدت مشاعرى تجاهها واعتقدت أنها تنتظر رؤية وجهى كل صباح ، عندما كنت أصحو من النوم وأفتح الشباك أجدها شبه عارية مبتسمة في عيونى ، أراها كل ليلة بصحبة شاب جديد ومع ذلك تخرج إلى البلكونة في الصباح كأنها تطالبنى بالسماح والعفو.

فى الأجازات والأعياد نغادر الشقة إلى القرية ونعيش مع إخوتى مستمتعين بشروق الشمس ، كنت آخذ ريع الوديعة التى تركتها "حياة" ونصرف منها على معاشنا ولم يعترض عمى وأخى من تحملى لمصاريف دراسته وإقامتنا المشتركة.

كان "على" يسألنى كل يوم : " عملت إيه في الشغل النهارده؟ " فأرد بشكل مقتضب : "كويس" ، تاركًا عقلي يراكم ويخزن أسرار القدر ، أحس مرات كثيرة بمعرفته بكونى عاطلًا لا يجد مكانًا له فى الحياة ، ومع ذلك تجاهلت أسئلته وبدأت أتردد كل يوم على مكتبة قريبة أقرأ فيها طوال النهار حتى عودته من الجامعة.

وفي صباح عادي وبشكل غير متوقع تلقيت رسالتها المقتضبة من رقم مشفر : " أعيش ببيت الرب في الأراضى المقدسة ، أرسلت دعوة على الإيميل ، ويمكنك ملاقاتي من جديد" ، لم أتردد ونزلت لأقرب مقهى وفتحت صفحتى وتأكدت من دعوتها وبحثت عن موقع السفارة وملأت الأبليكيشن واتصلت بشركة سياحية وحجزت تذاكر الطيران وأرسلت الأوراق والدعوة إلى إيميل السفارة وانتظرت موعد المقابلة للسماح بدخول بلادهم.

عدت إلى الشقة آخر النهار ووجدت أخى مبتهجًا كعادته ، فبلغته بالخبر ورغم عدم اندهاشه لكنه رد بحذر : " شغل ولا سياحة " ، فأجبت بحياد : " بكره هنسافر للبلد علشان أشوف إخوتك ولما أرجع هجاوبك " ، واستكملت كأخ أكبر : " متقلقش هسيبلك مبلغًا محترمًا بحسابك في البنك ، لو احتجتْ لأيِ حاجة متترددش في الاتصال بأخيك ".

فاجأني بحضنه الدافئ قائلاً : " متخفش علىَ ياخوي ، أنا قلقان عليك ، هترجع امتى " ، رددت والبكاء يملأ عيني : " معرفش " ، واستكملت هاربًا من سؤاله : " يا سيدي لسه التأشيرة مطلعتش ، أجل الأسئلة ليوم السفر ".

نمت ليلتي وأنا أحلم بمقابلتها ، لعل رؤيتها تعيد الإحساس إلى قلبى وتروي مشاعري التي تفحمت.

بنفس الليلة شاهدت نفسي داخل كرة مغلقة تمتلئ بالوحوش المفترسة ، وحين صرخت لينجدني أحد من مطاردتهم ، تساقطت نقاط بيضاء أشبه بحبات الذرة من سقف الكرة ، وحاولت التقاط إحداها ، لكن شيئًا ما دفعني من ظهري فسقطت في قاعها المملوء بالحدائق.

طرت كعصفور بين أشجارها ، وحملتني أجنحتي إلى عالم واسع يضج بالنور ، تركته ودخلت وحيدًا إلى أراضٍ بور واسعة خالية من البشر ، وشاهدت أمي تقف عند رأس أحد الحقول وتناولني البذور قائلة : " ارمها ولا تخف " ، فى تلك اللحظة شاهدت الوحوش مرة أخرى تتأهي لأفتراسي فصرخت : " جاي الحقوني ".

تيقظ "علي" مفزوعًا ، ودخل حجرتي وأخذني بحضنه ، وعندما رأيت دموعه اعتذرت قائلا : " النوبات ديه بتجينى كل فترة طويلة متقلقش ".

لم يعجبه ردي وقرر الرحيل معي للبلدة ، وضعنا ملابسنا في الحقيبة ، ونزلنا من الشقة دون انتظار خروج النهار ، جلسنا كأصدقاء عند أقرب بائع فول وطلب طبقين ، فقال بحب : " الشروق وزقزقة العصافير بتساعدني عشان أفضي ليك بسر لا يعلمه إلا الله " ، فقلت : " اتكلم سرك في بير " ، فاستكمل كأنه لم يسمعني : " فيه بنت جميلة ومؤدبة بتحبني " ، سألته مخفيًا سعادتى : " المهم أنت يا دنجوان " ، فرد بتلقائية : " بموت فيها " ، فقلت كأب : " متستعجلش شوفوا بعض كويس وبعدين نتكلم في الارتباط " ، استكمل كأنه لا يراني : " احنا اتفقنا على الخطوبة خلاص ".

رغم اندهاشي ، لكنني قلت بتماسك غريب : " وهتاكلوا منين يا صاحبي " ، فرد : " احنا مش هنتجوز غير لما نخلص ونشتغل ، هنقرأ الفاتحة دولقتي ونتفق على كل حاجة " ، وتوسلني كصديق قائلاً : " أرجوك ساعدني بفتح الموضوع مع عمك قبل ما تسافر " ، رددت بسخرية : " يا دكتور متقلقش من أي حاجة ، بس أنت خلص واحنا علينا الباقى ".

عند رحيلنا من أمام الفوال فوجئت بالمرأة التى تقطن فى الشقة المواجهة لحجرتى تقترب منا قائلة بخلاعة لأخى : " عامل إيه يا أستاذ على " ، تحاشى النظر إليها ورد في حياء : " كويس يا ست صفية " ، ركزت المرأة في عينى وقالت بفجور : " مستنياك متتأخرش " ، اندهشت من بصيرتها اللامعة ولم أرد عليها مستغربًا معرفتها بقرار سفرنا المفاجئ.

ابتعدنا عنها وركبنا الباص ونزلنا في الموقف وارتمينا داخل السيارة التى يزعق سائقها باسم بلدتنا ونمنا دون اتفاق ، ولم نستيقظ إلا بمدخلها الواسع.

رحب الجميع بحضورنا وابتهجوا بالهدايا التى سلمتها لأياديهم ، ورغم قرار سفري المفاجئ ، لكن خطوبة أخى كانت الحديث الطازج المفضل لديهم ، طلب عمي رأيي في الموضوع قبل اتخاذ أي قرار ، وقال كأب : " أنت أخوه الكبير وفي مقام والده وعندك خبرة ، ايه رأيك؟ "

تحدثت بمسئولية لم أعتد عليها قائلاً : " احنا ملناش إلا سعادته ، ومادام الجواز مش هيتم إلا لما يخلص يبقى مفيش مشكلة " ، رد الرجل كأنه ينتظر سماع هذه الكلمات : " على بركة الله ".

تهامسوا كهاربين عن صراعات الحوارى الجديدة التي ظهرت على أطراف القرية ، واندمجوا منبهرين بشجارات الباعة لاحتلال الطرقات ، وصراع تجار البلاستيك والخردة والكرتون والزجاج على الأسواق ، نسوا لفترة حكايات "علي" و "خديجة" وقرار سفرى وناقشوا كمراقبين التغيرات التى طالت حياتهم والبشر الجدد الذين دخلوا حياتهم.

سمعوا بإنصات لآراء "مسعود" رغم صغر سنه كأنه أحد البلطجية وهو يرشدهم عن كيفية التعامل مع التجار والسماسرة شارحًا خلفية كل لص فيهم وتاريخه كأنه وسيط بين عالمهم الهادئ وحياة المقتحمين الجدد.

تركوني في الحجرة لأنام وحدي ، لكن الوحوش جاءتني مرة أخرى ، جلسوا بجواري وغرسوا سكاكينهم في بطني ورأيتهم يتحدثون من أصابعهم وينعتوننى بأوسخ الألفاظ ، بحثت عن أفواههم أو عيونهم ، كانت أصابعهم المملوءة بالتجاعيد وأظافرهم الطويلة تتحدث وتسمع وتقذف فى وجهى بالبصاق ، لم يكن لهم عمل إلا الطعن في جسدي كلما سمعوا صوت صراخي.

كتمت أنفاسي حتى نسوا مكاني ، وحين ابتعدوا عني تحركت يدي دون إرادتي ، فعادوا من جديد يفتشون عن أثر لأحاسيسي ، أثناء ذلك كنت مشغولا بالبحث عن فتحات شرجهم التي يتبرزون منها ، لكن أحدهم شج أنفي وفمي بأظافره التي تلمع كالسكين الحاد ، وهمس قائلاً من أعلى أصبعه الأوسط : " لقد حرمنا الله نعمة الأكل والشرب فاختفت حواسنا يا بن دين الكلب " ، واستكمل آخر وهو يدق السيخ المحمي في صرصور أذني قائلا : " هل تعرف أننا حرمنا كل هذه النعم من أجل إسعادكم يا ولاد القردة ؟ "

لم ينجدني من جحيمهم إلا صراخ المؤذن معلنًا صلاة الفجر ، صحوت في صمت ، خائفًا من عودتهم ودخلت الحمام على غير عادتي وتوضأت وذهبت وحيدًا للجامع.

حين شاهدني عمي وإخوتي أقف وسط المسجد رافعا يدي ناحية السماء ، نزلت الدموع من عيونهم وجروا ناحيتي وأخذوني بأحضانهم غير عابئين بباقي المصلين الذين تجمعوا حولي وبكوا في حضني كأنهم يعزوني في وفاة أبي.

* سويلم *

من منكم عرف رائحة وعقل أبي المتقد وأحس بوجوده الذي نشر الأمان في البرية؟ حرمنا الكلب من كل ذلك في لمح البصر.

عند اغتياله أمام مسجد القرية وهروب المجرم قررت التهام كبده وعينيه وتقطيع خصيتيه وفرمها ونثرها في حواري البلاد.

لم يهمني ضياع وظيفتي الحكومية ولا مصير أولادي ، فطفلى الصغير ووالدي المحب ماتا غدرًا في عز الظهر ، دون ونيس.

تجمعت عائلتى بعد الحادثة وحملتني الأمانة ، تركت إخوتي وأبنائي الصغار في حمايتهم ورحلت مقتفيًا أثره سنوات طويلة ، مررت بجبال وقرى وأحياء وخرابات ، لكن العثور على القاتل ظل كالحُلم بعيد المنال.

وكلما اتصل أحبائى أو أعدائي وسألوني عن حياته يفور الدم في رأسى وأكاد أموت خنقًا.

وخلال رحلتى الطويلة لم تتوان أمي وإخوتي عن تذكيرى بشرفنا الضائع ، وفي يوم مبهج تلقيت رسالة قصيرة من عمي يصف حياته وسط أولاده كالملك ، فرحلت إلى مكان إقامته حاملًا رسالته فوق أعناقي.

حين حطت رحالي أمام مقهاته ، بحثت بروحي عن طيفه لألتهم جثته ، لكن الله ألهمني الصبر لأدبر حياتي بهدوء ، فالمعلومات تؤكد أنه كالذئب ويحس بالخطر قبل وقوعه ويجب التريث لإعطائه الأمان قبل الاقتراب من جثته.

استأجرت شقة بجوار منزل العاهرة منتظرا خروجه من عندها في ليلة مقمرة كى أفترسه ، لكنه لم يقترب من بابها ، وكلما احتاجها هرولت إلى مخبئه بحارة الأوباش كالعنزة.

سنوات طويلة أنتظر اللحظة المواتية للانقضاض على نور عينيه ، لكنه كالقطط بسبع أرواح يهرب من مكائدى كالحية.

عملت بائع بطاطا وجزمجي وحلاقًا لأستفرد بجسده وأقطعه ، لكن حذره ومكره أفشل كل خططي.

اشتريت عربة فول وركنت أمام مقهاته وبعت السندوتشات والمخلل ، واندمجت في مهنتي الجديدة ونسيت أهلي وقريتي ، لكنني لم أنس شرف عائلتنا وجثة ابنى وأبى النازفتين أمام المسجد والتى لملمت بقاياهم من حفر الأرض يوم الجمعة الحزينة.

حملت السم في جيبى حتى إذا حضر وضعته في طبقه ، لكنه كالجن لم يقترب أو يشتري مني أبدًا ، طاردت طيفه لأواجهه بمفرده ، لكن حرصه كان حائلا نحو تنفيذ المهمة ، راقبته في السوق وعلى النواصي وداخل مقهاه ، وأفلت بأعجوبة من الخيوط التى شبكتها على حياته ، كأن القدر يحمي روحه النجسة!!

كدت أحقق حلمى فى ليلة مباركة فأثناء خروجه من القسم مخمورًا فتحت المطواة لأغرسها فى قلبه ، فوجئت بتصلب أصابعى وإصابتها بالشلل ، نقلني "الأمين زكي" للصيدلية وأكد للدكتور على مروءتي ، فأعطاني الرجل حقنة أذابت الجلطة التي كانت ستودي بحياتي.

راقبته وطاردته كظله، لكن الثعلب أفلت من قبضتي لدرجة اعتقادى أن بروحه مسًا شيطانيًا يجعلني أفشل دائما في تمزيع جثته.

خلال حياتي بالحي توطدت علاقتي بـ"ثريا" و"سفروت" و"لولا" وعاشرت معظم نساء الحي اللائى يتصنعن الحكايات ليقتحمن حجرتي الصغيرة الممتلئة بقوارير الفول والأطباق ومرتبة قذرة .

لكن لوع "سوسو" الكوافيرة خلب عقلى وحولنى دلالها وبكارة وجهها وامتلاء شفتيها إلى عصفور بين يديها ، تسحبنى آخر الليل إلى شقتها وتنام بجوارى بملابسها وتعطينى نهديها لأرضع منهما، علمتنى العشق وأدخلت بروحى نورًا لم أحلم بالعيش في ضيائه.

أسمع حكاياتها عن المرتد فأندهش من حال الدنيا ، فالرجل الذي عاش بمنزله وبين أولاده آمنًا من شر المجرمين يدخل بإرادته قلب الخطر مشتاقًا إلى مواجهة الموت.

عندما رأيته أول مرة اندهشت من طيبته وذكرني صوته الخلاب بأمي ، ورغم أنه ابن صليب لكن نور وجهه أعادنى إلى حقول القرية وزرع الخير فى روحى.

حاول "الأمين زكى" والمتربصون معرفة أصلي ومكان عائلتي ، لكني تمكنت بالحيلة من إقناعهم بأنني ابن حوارى وعشت بالشوارع بعد وفاة عائلتى في الوباء .

استأمنوني على أسرارهم ، لكني لم أرتحْ إلى وجه الشيخ والقسيس ، واطمأن قلبي لرؤية "ملاك" وعاملته كابني المحروم من حضني.

وفي يوم غريب انتابتني حالة اكتئاب ويأس من مطاردة القاتل وكدت أنسى أمانة الثأر وتجهزت للزواج من "سوسو" لأعيش كباقي خلق الله.

فى تلك الليلة سرت بالحوارى والغم يقتلني وأخذتني قدمي إلى حارة الأوباش المجاورة للخرابة ، وسمعت صوت "بقدونس" يصرخ ويتلوى غارقًا في دمائه ، اقتربت من طيفه فعرفني على الفور وصرخ قائلاً : " اسعفني يا سويلم ، هموت يا وله ".

كدت ألوم على الرزاق الوهاب ، فكيف يأخذ روحه ويحرمني الانتقام من قاتل أبي؟ واجهته بغضب قائلاً : " مش عارفنى يا بقدونس" ، فرد بأنفاسه المقطوعة ولسانه السليط : " أسعفني ياعرس يا بن المرة يا بتاع الفول الحامض" ، فقلت : " الدنيا صغيرة يا مجرم ، أنا ابن مخيمر يا زوج عمتى ، لساك فاكرهم يا كلب ".

نظر بغيظ ناحيتي ووقف على قدميه رغم الدم النازف من رقبته وقال بطيبة : " راجع نفسك يا سويلم ، أبوك البادي ، ولولا طمعه لكنا دلوقتى بنحصد القمح مع أحفادنا فى الغيط " ، نظر في عيوني كأنه يسحرني وأمسك برقبتي وكادت روحي تخرج في يديه.

وحين أخرج موس الحلاقة من تحت لسانه ليقطع شراييني ، اخترقت الرصاصات رأسه ففعصت عينه ودست على رقبته المقطوعة بأقدامى لأتأكد من موته ، وشاهدت طيف "مينا" يقترب ويخطفني في لمح البصر لنهرب من الحارة.

سرنا صامتين لفترة طويلة ، وحين أحس بعدم فهمي لوجوده وسط الأحداث ، انبرى قائلاً : " متظلمنيش يا ولدى فأتباع القسيس والشيخ قطعوا رقبته ، ولما ظهرت اختفوا ، وعندما انقض عليك مرة أخرى عرفوا أن روحه رجعت لجسمه فأمطروه بوابلا من الرصاص ".

صمت برهة ثم سألني عن أولادي وأرضى ، فعاد الزمن إلى الوراء وأحسست بالأمان وانتقلت روحي من مكانها ، احتضنته كأب وركبنا القطار عائدين لقريتنا.

لم يعرفنى أولادي ، وتصوروا الرجل الغريب والدهم ، فنهرتهم أمي وزوجتي وأخذونى بأحضانهم ودموعهم تتهدل فوق خدودهم ، واستقبلنى الجميع ك ناجي من حرب.

حاولت إقناع إخوتي وأعمامي ليعيش معنا المسكين ، لكنهم لم يرتاحوا إلى وجهه وقالوا : " يأخذ ابن صليب وجبة ويغادر ".

انشغلت عنه بضيوفي وحينما تذكرته جبت المنزل باحثًا عنه ، لكنه غادر تاركًا سحر عيونه يلاحقني ، رغم حزني على فراقه ، لكن الأيام السوداء انتهت بلا عودة.

جلست وحيدًا أبكى عمرى الضائع وفقدى لوجه "سوسو" التى واستنى طوال أيام الضنك ، لم تفارقنى رائحتها وسحر عيونها الذى دفأنى طوال ليالى الغربة ، وعندما دخل أولادى مقتحمين خلوتى نسيت كل شيء ولم يعد للحى وجود في أعماقى.

تجهز الربع للعُرس ، الأحصنة العربية ، والجمال المطرزة ورائحة المحاشي واللحوم المشوية ولهيب نار الفحم المتقد يملأ بيوتنا.

وقفت بجوار إخوتى وأعمامى فخورين برجولتنا لأخذ ثأرنا من القاتل ، ولعلع صوت الشيخ "مغاوري" داخل الصوان الكبير ، وبكى الجميع فرحًا بموت الثعلب الذي حرمنا روح والدنا الغالي وابنى الصغير.

اليوم فقط يمكن لأبى التى كانت طلعته تضاهي نور الأرض والسماء ، أن يرتاح في قبره ، الجميع جاء مهنئًا لأخذ عزاءه المؤجل منذ سنين.

" غانية "

أتاح وجودي بالقرية فى انتظار رحلة الطيران إلى تضميد جراحي متأملاً الكون المفتوح وسط الحقول التى يمدنى لونها الأخضر بالأمل من جديد.

أمسكت ورقة وقلمًا ، ودونت أهم الأحداث التي وقعت في حياتى ، وكتبت فجأة جملًا غريبة مثل : " لماذا حرم الله آدم العيش فى الجنة ، أكانت خطيئته أم خطيئة حواء ، وهل فعلا أغواهما الشيطان ، أم قادتهما مشيئته إلى مصيرهما المحتوم؟ "

أسئلة أخرى طافت في ذهني عن طبيعة الأشخاص الذين عايشتهم وأبطال قصتى الذين لا أعرف مصيرهم.

لماذا كان أبي بالنسبة لي هو الحياة؟ رضيت بوجوده وأحسست برائحة عرقه وهو يدخل روحي ، كأنني أمتلك العالم ، لماذا فقدته وتحولت إلى هائم لا يعرف طريقه؟

وهل لعب عمي دور الشيطان حين أغوى أمي بالزواج ، ولماذا يعتبر استمتاعها بالحياة إثمًا ، وهل مخالفتها للناموس وزواجها بعد أربعين الراحل لإنجاب ذرية وأطفالا يعمرون الحياة جريمة؟

رغم هروب أبطال وعوالم حي المقتول ، فإن وجه "سفروت" طفى فجأة في روحى كأنه جني يطاردني ، وجرنى إلى الحي لمشاهدة باقي الأبطال ، لكنى تجاهلته غير عابئ بصراخهم.

شاهدت "ألطاف" زوجة "مينا المسكين" تقترب منى وتذكرنى بأمي ، وأشارت إلى "ملاك و"سعد" فى غيظ كأنهما "هابيل" و"قابيل" ، فى تلك اللحظة تمنيت معرفة هوية المرتد ، ودوره وسط المجرمين.

فجأة صرخت حمارة عمى بقوة ، فنظرت ناحيته ملوحًا بيدى فنبهنى إلى العودة قبل حلول الظلام ، أكلت معهم في صمت ودخلت حجرتى متحججًا باحتياجى للنوم.

لا أحس بثقل الوقت إلا عند حلول الليل ، فحينما يتركونني أسير أوراقي وأثاث "حياة" يدخل الأرق والحسرة إلى قلبي ، ورغم ذلك لم أتمكن خلال وجودي من تسجيل أية أحداث عن عالم المقتول ، ظللتُ أياما كثيرة أحاول الكتابة ، لكن الأيام الجديدة المملوءة بنور الشمس الصافى وخضار الزرع جعلتني سعيدًا بفقدهم.

خلال هذه الفترة لم أغادر القرية إلا لترتيب خطوبة أخى ، نزلنا إلى المدينة في باص مخصوص وحملنا الهدايا لنشرف الزيجة الأولى لعائلة أمى ، رحب أهل "خديجة" بحضورنا وقبل تناول العشاء قرأنا الفاتحة وعدنا إلى القرية وتركنا "على" بالمدينة ليستكمل دراسته على وعد أن يعود ليلة رحيلي ليودعنى.

غادرت القرية مرة ثانية للقاء ممثل السفارة الذي سألني أسئلة غريبة ، مثل إصراره على كتابة اسم أمي وصراخه بفجاجة لأعيد نطق اسمها فنطقت كعاصٍ : "سماح" ، ورنت الكلمة في أذني وأنا أرددها كأني عارٍ يكشف مؤخرته لينتهكوا شرفه.

كنت أصحو في الفجر وأصلي معهم بالجامع ، وأعود فى صحبتهم لنشرب الحليب ، أساعدهم على تنظيف الزريبة وحش البرسيم وري الأرض ، ثم نجتمع ساعة الشروق أمام المنزل لتناول طعامنا ، بعدها يذهب "كريم" و"مسعود" إلى مدارسهما ويتركانني ، فأذهب إلى نهاية الحقل في صحبة كتبي وأوراقي وأجلس على كومة التراب حتى عودتهما من المدرسة.

بعد رحيلهما يتفرغ عمي لإطعام أبقاره وأغنامه ، يجهز العلف ويقابل باعة اللبن ، يعد الطعام بنفسه لأبنائه ومواشيه ، ولا يخرجه عن صمته إلا وجودي الذى ينساه أحيانًا ، انشغل على غير عادته بخدمتي كأنني ضيف منزل من السماء.

هل يفعل ذلك لأنني ابن أخيه الوحيد وأخو أولاده ، أم لأنني ابن المرأة التي عاش معها أجمل أيام حياته وارتكب الخطيئة من أجل حضنها الدافئ؟

بعودة أخويّ تمتلئ الحياة بالضجيج والصياح ويستكملان عملهما في الحقل ثم يعودان إلى المنزل ليذاكرا دروسهما ويعيدا تفاصيل الأحداث التي مرت في يومهما.

نتذكر في الليل مواقف المرأة التى عشقناها جميعًا ، ينهمك عمي في التمثيل بجسده مقلدًا أداءها للصلاة ، ومناديًا عليها كأنها نائمة في الحجرة المجاورة ، كانت أرواحنا تمتلئ بالسعادة ونحن نحكي عن امرأة كل ذنبها أنها خلقت لتلاقي مصيرها المحتوم بفراق عشاقها.

حينما علمتُ بحصولي على التأشيرة تبدل حالي وعدت كغريب ، الليلة الأخيرة موحشة ، مرة أخرى تعود مشاعري إلى البرود وتتبلد أحاسيسي ، كأنها خلقت من جليد جهنم.

النوم يخاصم عيوني وصورة "حياة" تعود مرة أخرى إلى مخيلتي ، وفجأة أجد نفسي وسط أحداث القتل والسفك التي ملأت حي المقتول كأنني أعيش داخل منازلهم.

شاهدت " ثناء" تجلس أمام مقهى " بقدونس" كفانية في محل للنساء العارية وهي مقيدة في سلاسلها ، نظرت فى عيوني راغبة فى وداعي أو ربما لتذكيرى بحياتها التى أنهتها بطريقة عجزتُ عن فهمها.

سمعت من جديد همس العصافير في الأعشاش ، وارتفع صوت صراصير الليل من حولي ، قبل شروق الشمس حملت حقيبتى واحتضنتهم وقبلتهم ، مسحوا دموعى متأسيين لحالي ونطق عمى باكيًا : " إن ضاقت عليك متتساش إن احنا هنا ".

وعندما سمعت أذان الفجر الصارخ في الفضاء ، ركبت التاكسي وابتعدت عنهم وعلمت أني راحل بلا عودة.

" لولا "

خطفتني العصابة انتقامًا من عشيقي ، تحالفوا مع زوجته وتمكنوا من الغدر بجثتي وألقوني في منطقة "جهنم" المملوءة بحيوانات ومواش وبشر لا يشبهوننا.

عاشرني رجال وصبية الحي الجديد وامتصوا روحي ، ووضعوني في خيمة وسط ميدان يتوسط أعشاشهم بمرافقة امرأة فاجرة وشاب عاجز ، تفرغوا كل ليلة لتجهيزي كعروسة بكر لم يفض غشاءها أحدٌ ، عملوا قرعة لاختيار ليلة كل رجل كي يمتطى فرجي ، علقوا الأسماء على باب الخيمة حتى لا يخطئ أحدهم أو يطمع في دور الآخرين.

أنام منذ الفجر حتى الظهيرة ، وعند يقظتى تحمّينى المرأة بمياه ساخنة مخلوطة بالشبر والجنزبيل والخل والنعناع ليستعيد جسمي نضارته ، ثم تحمل جثتي إلى الفضاء لأنام عارية بين السماء وأتمرغ على بطانية خشنة ليتبارك جسدي بنور الشمس ، بعدها أتناول طعام المتعة وأتجهز لليلتي الجديدة ، وتأمر الشاب العاجز الذي يلازمها لإحضار مخلوط الحب لتدعك فرجى ونهدى ، ثم تدخلني حجرة مملوءة ببخار زهرة العين التي تفقدني الذاكرة وتعيدني كفتاة بكر إلى سريري.

وعندما تغرب الشمس أستعد لاستقبال رجل الليل الجديد كبدر عائد من السماء.

أنستني تلك الطقوس الليالي السابقة في حياتي وجعلت أملي إمتاع العريس الذي يعاشرني كآخر امرأة في حياته ، عشت شهورًا كثيرة في نجعهم دون إشباع غرائزهم ومع ذلك امتلأت روحى بسعادة ونشوة تطايرت كل ليلة فى سماء العشق.

وتفاجأت في ظهيرة يوم مشمس بنقلي مغمية العينين مرة أخرى إلى الجسر الذي يحرسه "سوستة" ، توسلني لأسامحه مؤكدًا عدم مشاركته فى خطفى ، وبين المكيدة التى أوقعنى فيها رفض الضابط الإفراج عن سيد جهنم ، واضطرارهم لخطف زوجته "جهاد" التى أكدت أنى الوحيدة التي يمكنها أن تجعل عشيقى كالفأر بين أيديهم ويستجيب لأوامرهم ، وبالفعل حقق مطالبهم مقابل إعادتى للحي سالمة.

ركب على جسدى كحصان وروى روحى بماء مخلوط بالهباب وتركني أسفل الجسر كى أستعيد ذاكرتى ، ترجلت غير مصدقة ما جرى فى غيبتى.

وحين رأيت "سفروت" يركب توكتوكه عادت أصوات "ثريا" و "بقدونس" ورجال الحي ونسائه إلى أعماقي وتذكرت بهجة ليالي الحب في جهنم ، وصرخت بأعلى صوتى لكن "سفروت" لم يستجب لندائي ، وطار كعصفور وسط الفضاء.

وقفت متأملة أكوام الزبالة وصراع القطط والكلاب من حولى ، وفوجئت بـ"سعد" و "ألطاف" يسيران خلف بعضهما البعض كالجرزان ، وحين شاهداني خرجا من غيبتهما وأشهر "سعد" في وجهي سكينًا طويلًا ، وهذت "ألطاف" قائلة : " لا يوجد غيرك يعرف مكانه يا شرموطة ، اختفيت ليلة هروبه ، دلينا على مكانه يا فاسقة ، فأنت قرينة ثريا التي عاشرته مع بقدونس ليلة مقتله ، المعلومات كلها في جعبتك ، لن نتركك إلا إذا أرشدتنى لخُن الديوث ".

حاولتُ افاهمهم بأنني خطفت وسلبت أراداتي شهور طويله ، ثم قام مجهولين بخطفي من عشش جهنم واعادتي مرة ثانية، لكن ظلام عقولهم أعماهم عن سماعي ، واضطررت أمام جنونهم بالكذب عليهم قائلة : " عارفة مكانه " ، عند ذلك أنزل "سعد" سكينته قائلاً : " انطقي يا بت " ، رددتُ كمغلوبة على أمرها : " دوروا في بيت ثريا ".

صعقت "ألطاف" من المفاجأة قائلة : " النسونجي طلقني لينام مع العاهرة بحريته ".

أمرتُ "سعد" بشج بطني ، فجريت بعيدا وطارداني كالمجانين ، وشاهدت "سفروت" من بعيد يصرخ قائلاً : " ماتلمسوهاش " ، نظرا ناحيته بغدر فهددهما وانصاعا لصوته لمعرفتهما بتهوره وجنون مطواه ، ونظرا بغيظ ناحيتي وهو يمسك بيدي ويبتعد عن شرهما.

ركبت في الكرسي الخلفي وانطلقنا عائدين ، وطوال الطريق لم ينطق لساني بكلمة ، وعندما توقف في حارة بعيدة ، أمرني بالنزول وترجل متوجسًا حولى ثم أمسك بيدى فى خوف وسط الظلام الدامس مقتربًا من وجهى قائلاً : " تتجوزيني يا لولا ؟! "

كدت أقع من هول المفاجأة ، فاستكمل متوسلاً : " عارف علاقاتك بالجميع لكني أحبك " ، وقبل ردى على أمنيته فوجئت بطلقة تدخل جسده فأخذته بحضني صارخة ، فاستكمل ووجهه يشرق بالنور : " لولا قبليني " ، وضعت شفتي في فمه ، يا ألله لم أشعر في حياتي بهذا الطعم ، وحين أحسست بقلبه الواهن في صدري صرخت بعلو الصوت : " جاي ، الحقوني ".

شعرتُ رغم الظلام بهروب العصابة وسمعتُ أحدهم يقول : " ممتش لسه يا شيخ ميهوب" ، فهمس "سفروت" مرة أخرى في حضني قائلًا : " اصرخي يا بت ".

وقتها فوجئت بوجه "مينا" يقترب ، ويرفع جثته ويختفي بمدخل أحد المنازل.

وحينما سمع صوت أقدام فرقة الشيخ تقترب من جثة حبيبى ، صرخ قائلاً : " أنا مينا المسكين ، أطالبكم بالرجوع ، أتسمعني يا ميهوب ، ابتعدوا وإلا حرقت أرواحكم " ، فروا كالكلاب كأنه أله ، حينذاك اجتمع أهل الحي من حولنا وطالبهم "مينا" بنقل حبيبى إلى الصيدلية لتطبيب جروحه وإخراج الرصاصة من فتحة شرجه.

سمعوا كلامه كأمر وجروا بـ"سفروت" إلى الدكتور الذي انهمك مع مساعدته في وقف الدم ، نظرنا إلى وجوه بعضنا باحثين عن المسكين الذي اختفى من وسطنا كالضوء.

الجميع سألني عن مكانه ولم يصدقوا ما جرى ، حتى "ثريا" كذبتني قائلة : " كان هربان معاكى فى جهنم " ، ولولا ظهور "سوسنة" لاعتقد الجميع أنني شريكته في الجريمة.

الآن لا أستطيع معاشرة الضابط بعد تذوق طعم القبلة الوحيدة في حياتي ، لكن "سفروت" لن يستطيع حمايتي من مطاردات المخبرين ، حين يُشْفَى من مرضه سأغادر معه إلى بلاد الله الواسعة.

نمت ليلتي وأنا سعيدة بقراري ورأيت نفسي أعمل في صحبته في زراعة الحقول ، وننام في كوخ خشبى على شاطئ نهر بعيد وتظهر مياهه من حولى كلؤلؤ لامع ، استمتعت بنور الشمس وجريت وسط الزهور مع بناتى اللائى يشبهن والدهن.

سرت مع فتياتى الشبيهات بالملائكة فوق المياه التى تحولت تحت أقدامنا إلى زجاج شفاف ، وعندما سمعت صوت المغنى في الحدائق الواسعة يدندن بأغانى الصباح ، هرعت وسط الأشجار باحثة عن شجن مزماره الذى حولنى إلى حورية.

أمسك "سفروت" ابنتنا الصغيرة واحتضنها قائلاً : " شكرًا يا رب لرزقي بأرق امرأة وأجمل بنت " ، وحينذاك فوجئت بالمخبرين بقيادة "الأمين زكي" يزغدونني فى وركى ليوقظوني من أحلامي ، وقبل أن ينطق لساني قيدوا يدي وذهبوا بجثتي عارية لمبنى القسم ، تسلمني الضابط وأغلق علينا باب الحجرة ، ونظر في عيونى صامتًا.

شرحت كل ماجرى علّه يغفر أو يسامح ، لم يبتئس من معاشرتي لكل رجال جهنم ، واندهش من وصفي لطعم قبلة وحيدة من فم "سفروت" ، وحينذاك وقف فى مواجهتى وصرخ بجنون قائلا : " يا شرموطة ".

جلس على كرسيه مرة أخرى ونظر إلى نهدى العاريين صامتًا كأنه يفعصهما ، وقام مفزوعًا ولطم خدوده وبكى كالنساء وأخرج مسدسه من درجه وأطلق على رأسه عدة طلقات أودت بحياته ، المصيبة أن الأمناء والضباط الذين دخلوا الحجرة مرعوبين ورغم يقينهم بانتحاره لتصنتهم علينا جروني إلى النيابة والمحكمة كقاتلة.

ولولا قبلة الحياة لكنت عشت بالسجن كميتة ، لكن طعم الشهد الذي شربته من فم حبيبي جعلني أتمنى طوال ليالي السجن الخروج لأتزوج الرجل الوحيد الذي عشق رائحتي.

" رهان "

حملت حقيبتى ودخلت المطار كالهارب ، واكتشفت أنني أغادر هذه السماء لأول مرة ، نقلونا إلى الطائرة فى سيارات غريبة وانقبض قلبي حين جلست على كراسيها الفخمة.

ياله من إحساس غريب أن تشعر أنك تطير فوق الأرض! نظرت للنهر والبيوت والشوارع المكتظة والصحراء المترامية والحقول الواسعة من أعالي السماء ونمت.

وشاهدت نفسي أمشي وسط شوارع القرية في زي رواد الفضاء والناس تحيطني كأنني مسحور ، نظرت بعيونهم من خلف نظارات سميكة وهم يحاولون إعادة الإحساس إلى جسدي الحديدي ، وغرسوا سيوفهم وأطلقوا رصاصهم على قلبي ، لكنه لم يجرحوني ولم أشعر بصراخهم.

غادرتهم ودخلت شوارع المدينة وقابلت الحلاق السعيد بعودة زوجته إلى منزله ، ورأيت صاحبة الشقة بحى الجامعة التي أخذت مبلغ الإيجار ودسته في صدرها المنتفخ ، نظرتُ إلى خونتي الثقيلة متسائلة : " هل بالسماء وعوالم الفضاء بيوت للإيجار ؟! "

أيقظنى صوت المضيفة الرقيق ، واندهشت من شخير جاري الذي لم يهتم بصوت هبوط الطائرة في أرض العجايب.

سمعت موسيقى غريبة وهم يأخذون أوراقي ويضعون عليها الأختام ، سألوني أكثر من مرة عن اسم أمي ، فرددته على استحياء ، نهرنى الضابط لأرفع صوتي فقلت : " سماح ... سماح " ، نظر إلى وجهى باستخفاف وسلمني أوراقي وفتح البوابة الإلكترونية لأمر.

حينما وضعت قدمى على أرض الغربة شاهدت "أيمن" يجرى ناحيتى ويرحب بوجودى ، سألته عن "حياة" فخاطبني بحياد قائلاً : " أرسلتنى لاستقبالك " ، واستكمل بود : " كل حاجة ماشية بنظام ، الدنيا هنا مختلفة " ، نظر بدهشة في وجهى مؤكدًا عدم تصديقه بوصولى ، واستكمل في براءة قائلاً : " الحياة بالمدينة لا تحتمل أسئلة ، فقط عليك السير والعيش دون همس " ، وسألنى بسخرية : " ممكن تتحول لرقم في متواليتنا السعيدة؟ "

تجاهلت سؤاله ونظرت إلى لافتة كُتبت بعدة لغات ترحب بالعائدين ، وقرأت باستغراب لافتة أخرى مكتوبة بلغتى : " هذا وطني لا تسرقوه ".

أمام باب محاط بالأسوار المطلية باللون الأبيض أنزلني قائلاً : " وصلنا " ، أشار إلى باب محاط بالأشجار وودعنى قائلاً : " حمد الله على السلامة ، تنتظرك بالداخل " ، انفتح باب الحديقة بمجرد وقوفي أمام أسياخه البيضاء ، ليكشف عن عشرات الخيام المرصوصة بانتظام بجوار بعضها ، وشاهدتها تخرج في استقبالي ، فنطق لساني على غير إرادتي قائلًا : "حياة" ، احتضنتني والبكاء يغرق وجهها الملائكي ، أحسست بجسدها البض يدخل في ضلوعى ، وملأتْ ملابسها الناصعة وشعرها الحليق روحى بالرهبة والخوف.

ملَّست على رأسي قائلة : " أخيرًا " ، سحبتني داخل خيمتها ، ورافقتنى إلى الحمام وأخلعتني ملابسي وجلست بجواري فى البانيو تدعك جسدي ، أجلستني على كرسي صغير وأمسكت ماكينة الحلاقة وأزالت شعر رأسي.

ألبستني رداء أبيض وجلسنا على أرضية الخيمة المفروشة بالسجاد الناعم ووضعت أمامي أطباق الجبن والخضر لأتناول غدائي.

تركتني وذهبت لاستكمال صلاتها ، وقبل سؤالي عن حياتها الجديدة ، وضعت كومة من الأوراق أمامي لتدوين انطباعاتي منذ رحيلها حتى وصولي إلى خلوتها.

وكأنني مسحور أمسكت بقلمي وكتبت : أين أنا الآن ومن هؤلاء؟ الخيام البيضاء تشبه وجه أمي وصوت الطيور غائب ولا أثر لأية نبتة خضراء.

طوال رحلتى كنت أبحث عن إحساسى الذى فقدته في يوم أسود ، فهل أعثر عليه أم أنه رحل دون رجعة؟

من هي "ثريا" و"لولا" وهل قابلت الحلاق وعشت بالمدينة ، من هو عمي وكيف مات أبي؟

أنا في أرض غريبة ، فهل أصرخ ، هل أبكي ، وكيف أنسف الماضي من بئر أعماقى؟

أأسير بإرادتي نحو مصيري أم أن القدر يرسم طريقي ويدفعني إلى المجهول؟

أيتها الجريحة الواقفة فوق الجبل لا تقتربي ، ولا تنتظري حضوري ، دفعني الجنون إلى بلوغ المدينة التي لم تطؤها قدم بشرية ، ودفعني الفراق إلى السير في الطريق المعاكس.

كيف هان عليكِ تركي أسيرًا لوحدتك؟ عند وداعي الأخير شاهدت دموع عمي ، ولا أدري هل تذكر روح أمي المملوءة بالبراءة أم امتلأت روحه بمياه الخيانة لذكرى أخيه؟

اليوم أنا منسي في بلاد غريبة وسط خيام لا تعرف هويتي.

أعضائي تتبرأ مني وحواسي تموت ولم يتبق في الدنيا شيء لأحافظ عليه ، عشت كجوال وسط الزمان وفي النهاية هربت إلى قلب خيالك.

ترى هل أعود ، ولمن ، وفي أي بلاد سيكون موتي؟

أشاهد نفسي بأحلامي ويقظتي غارقًا وسط الأسماك ، ورغم أن ظهورها في الحلم يدل على الخير الوفير لكنها ميتة ، فهل مشاعري انتحرت؟

الكلاب والقطط والبط تتجمع على شطوط البحيرات ويأكلون النتنة ، والبشر الجائعون يجرون خلف الكلاب محاولين التقاط بقايا الميتين.

الدنيا تمتلئ بالمصارف ولا تكفي مسطحاتها لتجميع الأوساخ ، الصحراء تهجم على اللون الأخضر والمياه لتحيل الأرض المزروعة إلى رمال صفراء.

البيوت تتهدم وتحترق والناس تنهمك في بناء خيام بيضاء أو سوداء لتحميهم من برد المطر وقيظ الشمس.

تركوا أطفالهم الرضع لتلتهمهم الحيونات المفترسة ولم يندهشوا من تساقط الغربان ، والذباب الميت من أعالي السماء .

في هذه اللحظة تظهرين بدلال على شاطئ بعيد كأمل أخير لنجاتي ، تقتلني سهامك ، وفجأة تظهر أمي وتجلس بجواري على الأرض وتضع التراب فوق رأسها وتصرخ في البرية : " سامحني ".

احتضنتها وناديت على رب العرش أن يستجيب لدعائها ، لكن الكلاب هجمت علينا وصرخت قائلة : " يا بن النجسة أما زال في قلبك أثر للحب؟ "

وقبل استكمال تدوين انطباعاتي دَخَلَ أحد المريدين واقترب ودون النظر في عيني أخذ الرسالة ليقرأها ، تجمع حولنا بعض الأشخاص ونظروا بغيظ إلى أعماقي وقال أحدهم : " أمازلتم

تراهنون على قلبه؟ " انبرى آخر وهو يحك يديه في جلد ذقنه قائلاً : " منينا برحلة جديدة من الفشل ".

نظرتْ إليَّ كحالمة والبكاء يملأ وجهها وقالت : " خسرت الرهان على قلبك ، لماذا لبيت دعوتي مادامت روحك مملوءة بكل هذه القسوة ، وكيف عاشرت صديقتي دون أن يحن قلبك إلى خلاصي؟! "

تركوني معها ولم ينطق لسانها بكلمة واحدة ، أخلعتني ردائي الأبيض وألبستني ملابسي الملونة ، سحبتني وخرجت من الخيمة باتجاه بوابة سرية بعيدة ، شاهدت عشرات الوجوه التي تخرج من الخيام وتنظر ناحيتنا وترفع يديها للسماء ، كأنهم يدعون لحرقي أو سلامي.

اقتربتْ من جدران مخفية ولمستْ بعض الأزرار ، فانفتحت بوابة حجرية وسط الحوائط ، ودون أن تنظر ناحيتي زجرتني برقة داخل سرداب طويل ، فسرت حتى نهايته لأجد نفسي وسط عالم غريب.

" جهاد "

عندما دق "الأمين زكى" على بابي قائلاً : " البقية في حياتك ياهانم " ، لم أتصور أن يكون المقتول زوجي الضابط ، فالجميع كان يخشى سماع اسمه ، فكيف يموت بأيادى "لولا" عشيقته؟

ظللتُ ساهمة دون أن ينبس لسانى بكلمة واحدة ، وعدت لا أعرف هل أضحك أم أبكى؟ فالمرحوم لم يشعر أبدًا بأننى زوجته.

يا الله لماذا خلقتني وزوَّجتني لرجل لم يسمع صوت آهاتى ولو لمرة واحدة؟ ولماذا تكبل عقولنا وأرواحنا وتقيدنا في سلاسل فضية لا نعرف شفرة حلها ، وتفقدنا النظر ونحن نسير نحو مصيرنا المخفي بلوحك المحفوظ؟

بعد دفنه وأخذ عزائه ومغادرة أسرته لشقتي ، عشت أيامًا سوداء بسبب جهلي بانطباعات أقاربى ، جلست مع ابنتي في الشرفة لا أعرف كيف يمكنني استكمال تربيتها؟ سخرتُ من نفسى متذكرة تجاهله لحياتي وحياتها ، لكن أمي لم تتحمل الصدمة وظلت تواسينى كأننى تحولت إلى عاهرة!

عندما أقابلها أرى في عيونها كلاما كثيرا وأسمعها تقول حزينة : " احمدي ربنا ، مسابكيش وحدانية ، فمرتبه وشقته يسترون عائلة كبيرة ، اشكري وسبحي بحمده ، أنت مش فقيرة أو متسولة زى خلق الله ، كفاية تروحى كل شهر لمكتب البريد وتستلمي ظرف النقود وتسددي فواتير البقالة والفاكهة واللحوم ، عايزة إيه أكثر من كده يا جهاد؟ " أعود من عندها إلى شقتي كل يوم مع "مريم" والغم يفتك بروحي.

استمرت حياتي شهورًا على هذا الوضع ، لا أسمع إلا مواساتها وهى تحكي عن بلاوي الأهل والجيران ، وتطالبني بالشكر لحمايتي من غدر الأشرار ، حتى تعبت من صوتها المستسلم الذى دمرنى.

وفجر يوم مشمس سمعت صوت "مينا" قائلًا : " افتحي بابك وواجهي الحي ومتخافيش " ، بحثت بالحجرات عن طيفه ولم أعثر عليه ، لكننى تيقنت بأن هذه رسالة الله.

قبل وفاة المرحوم لم أعاشر جيراني ، ومنعني الخوف من التعامل معهم ، الآن أصبح كل شيء مباحًا ، فماذا أفعل بحريتي؟ وهل يمكنني فك قيودي التي فتلتها وخيطتها على عقلي طوال ثلاثين عامًا؟

يا رب ماذا أفعل؟ وكيف أتقدم في مسيرتي؟ لولا " مريم" لهربت من جحيمهم وكسبت قوتي بأية طريقة ، العار لن يطول أحدًا بعد موت أبي ومقتل زوجي ، الآن يمكنني أن أفعل ما أشاء ، ولكني لا أعرف من أين أبدأ؟

علاقتي الوحيدة بالحي كانت بالرجل الذي غير دينه وهرب إلى عالم آخر ، عندما رأيته قبل مقتل زوجي واساني لحالي البائس ، كدت آخذه في حضني ليس طمعًا في رغبة أو شهوة ولكن لأن شيئًا بأعماقه أسرني وحولني إلى امرأة متزنة.

عندما أتعبني التفكير والخوف على مصيري قررت الاندماج وسط الجموع ، تقربت من جيراني واكتشفت أنهم مثلي لا يرغبون في معرفتي ، ذهبت للأسواق وفاصلت البائعين في الأسعار وتماديت في أحاديثهم لأدلو برأيي في أحداث الحي.

ساعدتني "مريم" على تجاوز عزلتي ، ولم يسألني أحد عن سبب خروجي أو دخولي ، ومع ذلك حين أعود للمنزل أحس أني غريبة عن أهل الحي، أسمع حكاياتهم ولا أندهش ، وأفتح فمي وهم يحكون عن أساطير المسكين الذي جعلهم ينامون بعيون شبه مفتوحة.

أكدوا اختفاءه يوم المحاكمة ، بحثوا عنه في كل مكان ولم يعثروا على أثره ، وكلما اقتربوا أكثر ليقبضوا عليه مات أحدهم كأنه عزرائيل قابض أرواحهم.

رغم ظهوره الشبحي ليحمي أحدهم من الموت ، لكن القدر يدير دفته ليتداول الناس الحكاية ويعيدوها باعتباره مدبرًا للجرائم ، الجميع يراه كآفة للشر ، ويعتبرونه سبب الغدر في حياتهم.

منذ يومين شاهدت صاحب مصنع الكهرباء الذي عمل فيه سنوات ، حكى وسط السوق على النار التي التهمت آلاته بعد طرده ، ولم تترك إلا الرماد ، حتى نقوده التي خبأها في خزانة سرية بالحائط احترقت كأوراق اللحمة ، ولم يتبق من إمبراطوريته التي كانت تصدر النور إلى الأحياء إلا الظلام.

يشاهده أهل الحى كل يوم يجرى ويهذى كمتسول باحثا عن المسكين كي يغفر نكرانه ، حاملاً حقيبة كبيرة فى يديه تمتلئ بالأوراق والشهادات والأموال ويصرخ قائلاً : " هذا حقه ومش هسلمه لحد غيره ".

حاولت "ألطاف" و"سعد" أن يأخذا الحقيبة في ظهيرة يوم ممطر ، لكنه جرى بعيدًا عنهما ، وأشهر طبنجته في وجوههما كالمجنون وأطلق عدة طلقات فوق رؤسهما صارخًا : " أنتم نصارى أنجاس وهو مسلم ، ازاى أسلمكم حقوقه يا كفرة؟! "

ليلة الأمس زارني القس "زايد" لأعمل مربية في حضانة الكنيسة ، وافقتُ دون تردد ، وذهبت في الصباح إلى المبنى الممتلئ بالأطفال الرضع واللقطاء اللاتي لا يعرفن آباءهن ، احتضنتهن وعاملتهن برفق.

عند مروري من أمام محل الجزارة سألتني "ثريا" عن صحتي وتوسلتني لتساعدني على تربية "مريم" ، ووقف "هدهد" أمام ورشته ، قائلا بحب : " البقية في حياتك يا هانم ".

سألته عن "مينا" الذي جاءني بالحلم ونبأني بمقتل زوجي ، وزجرته فى كتفه وطالبته بحمايته من جنون زوجته وأولاده وذكرته بالمرة الوحيدة التي قابلني فيها قائلاً كأبي : " ليست حياتك ، أنت مجبورة ، لا تخافي ، سأظل بجوارك ولن يطالك أذاهم ".

عندما رآني "سفروت" بالشارع اقترب مني وحلف ميت يمين لأركب معه التوكتوك ليوصلني سالمة إلى شقتي ، حمل مريم بين ضلوعه واشترى سيارة ملونة من بائع متجول وسلمها إليها قائلاً : " أنت ملاكنا الصغير ".

سنوات طويلة عشت وسطهم كأخت ، لكن الدفء الذي هرب من قلبي بعد زواجي لم يعد ، وفي ليلة شتوية أثناء جلوسى بالشقة أنظر في عيون "مريم" ، سمعت طلقات الرصاص المدوية تخترق أذني ، فاقتربت من الشباك وشاهدتهم يحيطون بمنزلي وسمعت صوت القس والشيخ والمأمور ومئات العسكر والأمناء يطالبونني بالنزول وتسليم "مينا المسكين ".

كانوا يجرُون عشرات الشباب والنساء ويقيدونهم في سلاسل طويلة ودماؤهم النازفة على الأسفلت تملأ الأرض بالبرك الحمراء ، سمعت صوت "المأمور" من ميكروفون معلق فوق شباكي يطالبني بالاستسلام قبل حرق منزلي.

رفع أولاد "بقدونس" و"سعد" و"ألطاف" و"عريان" و"هدهد" لافتاتٍ تندد بحياتى وتطالب بالقصاص من دمى ، وانبرى آخرون بجوارهم يهتفون باعتبارى خطيه وموسًا لتحالفى مع الشيطان رفيق "لولا" وقاتل حارسهم الأمين.

شاهدت طيف رجل يدخل من شباك المنور فارتعبت وجريت لحماية ابنتي ، فرفع عن رأسه الغمامة قائلاً : " لا تخافي يا "جهاد" أنت محمية ".

وضع ابنتي فوق كتفه وسحبني من يدي ، فبكيت قائلة : " بنتى بريئة من دمه " ، احتضنني وهمس بحب قائلاً : " عارف ، لكن محدش هيسمعك ، هنهرب قبل فوات الأوان ".

دخل المنور بخفة وسحبنى وراءه في الظلام وفتح بابًا سريًا لم يكن يعلم طريقه إلا زوجى وأضاء شمعة في يديه لينير طريقى ، وسرت وراءه في سرداب طويل حتى خرجنا إلى براح فسيح.

ترجلنا هاربين لأكثر من ساعتين حتى وصلنا إلى مدخل الجسر الذى يربطنا بحي جهنم ، وقال كأنه يلقي وصاياه الأخيرة : " دالوقتى ممكن تمرى وتنجى من شرورهم " ، فقلت : " وأنت؟ " فرد حزينا : " حياتي في الحي ، مش هسيبها ، وأهرب للنعيم " ، تركني واختفى داخل الخرابة.

سمعت صراخ قطة جريحة تقاوم الموت وتوسلتي بعيونها الباكية كى أداويها ، خلعت طرحتي وربطت قدميها النازفتين وانهمكت في تطبيب وعلاج آلامها ، ولم أبال بأظافرها التي جرحت يدى.

وحين تذكرت ابنتي صرخت بعلو الصوت : " يا مريم " ، بادلني البراح الصمت وعاد صوتي كصدى مرددًا اسم محبوبتى ، فعدت للحي عارية الرأس كمجنونة لمواجهة مصيري.

وقف المأمور وزمرته وعصابة "سعد" و"ألطاف" ورجال الحي ونساؤه أمام مقهى "بقدونس" فى انتظارى ، أحاطوا بأمي التي احتضنت "مريم" وجلست وسطهم تعدد على حالي بعد مقتل زوجى ورحيل أبى.

التف حولي الرجال والنساء كأنهم عثروا على صيدهم الثمين ، ونظروا بعيونهم الجاحظة فى أعضائى باحثين عن الأسرار التى تكشف لهم الخبايا.

قيدوا "سفروت" و"لولا" في الأعمدة المدهوسة ، وكتفوا يدي بسلاسلهم ووضعوني بجوارهم ، وصرخ المأمور بصوته الجهوري بالميكروفون : " أخيرا وقعت الفاسقة ".

لازمني الصمت والسكوت وهم يتلون الدلائل تلو الدلائل كاشفين عن مشاركتى فى مقتل ضابطهم الأمين ، أوشت "لولا" باشتراكي بمساعدة سفروت في إطلاق الرصاص على رأسه ، وشهدت "ألطاف" والشيخ والقس علينا ، وبالطبع لم يكن أمام المأمور أمام جريمة مكتملة الأركان إلا محاكمتنا.

رغم أن " لولا" مفتاح القضية صرخت معلنة براءتها من دمه لكنهم لم يرحموها ولم يختلف مصيرها عن مصيري.

عشت بالسجن أيامًا عصيبة وشاهدتُ جنون الحراس بعد تحويل النساء داخل السجن إلى سبايا ، قسمونا إلى فرق حسب العمر ودرجة الأنوثة ، اهتموا بفرقة المؤخرات الممتلئة للنساء اللاتى يمتطونها من الخلف ، وعشق آخرون مجموعة النساء التى تخصصت فى مص أجساد وأعضاء رجال العصابات ، وانبرى معظم الحراس ليسجلوا أسماءهم فى فرقة النساء المتخصصة فى ركوب الرجال من الأمام ، ووضعوا على وجوه النساء الفاجرات علامة تبين جنونهن لاحتياجهن للجلد قبل معاشرتهن.

تطايرت الإشاعات داخل السجن حول قيام الشيخ والقس باغتيال "حسن" ابن "الأمين زكى" كى يجبروه على الاستقالة من سلك البوليس والالتحاق برجالهم.

يقال إن عصابة الموت بقيادة الدكتور "سمبو" فجرت مخازن السلاح وأحرقت مبنى القسم وقامت بضم مئات الصبية الملتحين وحاملى الصليب إلى صفوفهم ، مما أجبر القس والشيخ على قبول انضمام فتيان الكنيسة والمسجد إلى عصابة "الأمين زكى" الذى تخصص مع صبيانه في الغدر واتفق الجميع لتدير حى الفواحش عصابة الخراب بقيادتهم الأربعة.

خلال كل ذلك لم يشغلني إلا حياة "مريم" ، اطمأنت روحى بعد زيارة امرأة عجوز لزنزانتى بالسجن ، قالت كأنها تلقي بالوحي في قلبى : " بنتك فى أمان ، ولولا بريئة من دم جوزك ، الكلاب ملاقتش إلا الأرواح الطاهرة عشان يغتالوها ".

لم أحدثها في تفاصيل كثيرة ، وحاولت معرفة هويتها ، فكشفت عن نقابها فتذكرت وجه المسكين ، الذى استكمل بأسى بعد إخفاء وجهه : " عملت المستحيل علشان تنجي من مصيرك

" ، واستطرد قائلاً : " لو كنت عديتى الجسر لتغيرت حياتك ، لكن مفيش مهرب من أحكام القدر المحفوظة باللوح السري المخفي في السماء ، هتعدى الأيام وهترجعى لحضن مريم ، وقت الندم فات ، مفيش أدامك إلا المواجهة ".

* مسحوق *

سرت في الشوارع المحاطة بالسكون ، متأملاً انطلاق أسراب البشر التى تجري في الخطوط المستقيمة بالطرقات للحاق بالزمن الهارب ، بحثت عن مقهى أو مطعم أو حائط يحميني من قيظ الغربة ، لكن البيوت الزجاجية المبنية بانتظام والمطلية برخام وجرانيت أبيض وتقف أمامها كلاب متأهبة لافتراسي جعلتني أستكمل سيري مرعوبًا دون معرفة هدفي.

الوجوه التي ألمحها داخل السيارات والمتجهة إلى مكاتبها أو منازلها لا تلتفت إلى عيوني ولا تنظر ناحيتي فشعرت أنهم لا يحسون بوجودى رغم ملابسي المهترئة الملونة وصراخي بالسؤال عن مأوى أبيت فيه ليلتي.

كل شيء أبيض ، الملابس والسيارات والمباني ، حتى الزجاج وجذوع الأشجار طليتْ بنفس اللون ، أين باقي الألوان؟

اقتربت من أحد الأكشاك سائلاً البائع عن محطة الباص علّني أسمع صوته ، لم يتكلم وأعطاني ورقة مرسومًا عليها معالم المدينة ، وأشار بقلمه الأبيض إلى نقطة سوداء بالخريطة ، وعاد مكلومًا إلى رص بضاعته في الفتارين الزجاجية.

حاولت فهم مغزى الإشارات أو الخطوط التي تملأ الخريطة ولم أتمكن رغم فراستي من معرفة مكان المحطة ، أسعفني الحظ برجل آخر مر أمامي ونظر إلى وجهي ضاحكًا ، فاقتربت منه وسألته عن فندق أستريح فيه من عبء السفر، فزجرني وأعطاني كيسًا في يديه ، فتحته بحذر وعثرت بداخله على زجاجة مياه بيضاء فأفرغت محتواها الأبيض كاملا في معدتي.

وحين لم تقو قدمي على رفع جسدي ، جلست وسط الشارع كأني نصف ميت ، وشاهدت سيارة بيضاء ينزل منها بعض الشباب ويلقون بجثتي داخلها منطلقين بقيادة الرجل المبتسم وسط المباني والشوارع إلى جهة غير معلومة.

ساروا بي مسافات طويلة متحدثين بلغة غريبة ، أكلوا وشربوا وضحكوا ونظرا بسخرية لجبهتي حتى وصلوا إلى قمة جبل عالٍ وتركوني وسط عمال صامتين.

رمقني رجل عجوز وتحدث إلى عيوني بالإشارات لتسليمي عملي على آلة كبيرة ، ووضعني أمام سير طويل لالتقاط عبوات مسحوق أبيض ، وفهمت دوري سريعًا بعد تحريك يديه

التى تطير بخفه لتلتقط العلب التى تتساقط من خرم الآلة وتضعها على سير خلفى لتذهب إلى عامل آخر يقف بجوارى ليرصها في الكراتين.

ليس هناك دور لتشغيل عقلى إلا عند اختطاف العلبة ووضعها على السير الخلفى ، فهمت بعد ذلك أن هذا المصنع الذى يختفى فيه البشر الملونون الهاربون من بوليس المدينة وجحيم المدن.

سلمنى صاحب المصنع حجرة بأعلى هضبة فى أطراف المدينة لأنام وسط مئات النساء والرجال العاملين في مخبئه.

كنت أشترى الطعام من محل قريب من المصنع وأركب الباص مع البشر الملونين إلى حى الأكشاك المقام فوق الهضبة الموحشة المحاطة بالغابات والممتلئة بالحيوانات المفترسة.

عشت سنوات طويلة أسير رعب عيون البصاصين ، وأصبح لا هَمَّ لى إلا الهروب من عيون عصابة البيض التى تطلق النار على الملونين الذين يجوبون شوارع مدينة الصمت البيضاء فى بلاهة.

سلبنى أمن المصنع كل شىء حتى فقدت هويتى ، منعوا وجود التليفونات والأقلام والكتب فى حوزتنا ، فقط هناك عيون تبحلق في نن عيونا كل دقيقة وهم يسحبوننا كالأبقار وراءهم ، وينادون علينا بأرقامنا التى وضعوها على صدورنا كعلامة على هويتنا .

رغم صعوبات اللغة لكن علاقتى توطدت بالعاملين ، عاشرتنى نساء قوية لتكتشف قدرتى علي الحب ، وصارعت دون إرادتى بعض الرجال الذين رغبوا في سرقة طعامى.

خلال هذه الفترة كنت أخبئ حقيبتى التى تحوى روايتى تحت سريرى وكنت أطمئن عليها كل فترة ، لياِلٍ كثيرة تصفحت أوراقها وسط الغابة على نور القمر محاولا استكمال فصولها ، لكن شيئًا مفتقدًا منعنى من الكتابة ، ورغم ذلك حمدت الله ، أننى مازلت محتفظًا بأوراقها سليمة ، باعتبارها الدليل الوحيد على وجودى.

أصابتنى أيامًا كثيرة هلوسة وجنون من محاولات الحراس سرقة ضميرى ، أظل طوال هذه الليالى يقظًا لتأمين أبطالى ، ولولا صنع الحقيبة من جلد عالىِ الجودة لكانت الرطوبة ومياه الأمطار أكلتهما دون الاعتداد بمعرفة مصيرهم ، لكن عيونى التى ظلت كالصقر لم تعبأ بأى شىء سوى الحفاظ على حياة أبطالى وملامحهم.

وفى ليلة مفزعة كسا الثلج الأشجار وصرخت الذئاب والدببة من وسط الأحراش باحثين عن فرائسهم ، فخرجت من باب الكوخ مرعوبًا من الصمت ونظرت حولى في الأزقة ولم أعثر على رائحة الأحياء ، فقررت الهروب غير عابئ بعوائهم ، دخلت الغابة المحيطة حاملاً حقيبتى ، ولم أبال بالثعابين البيضاء الباحثة عن الأفراخ والعصافير.

سرت أيامًا دون نوم وراء نقطة ضوء ترشدنى إلى طريق أخر، وبعد فترة طويلة كادت روحى تخرج فيها ، تمكنت من العودة إلى شوارع مدينة الصمت.

حين حطت قدمى على الأسفلت وشاهدت المبانى البيضاء مرة أخرى دخلت في غيبوبة ولم أدرِ بحالى إلا داخل مبني مكون من دور واحد ولا توجد على حوائطه أية لافتات أو لوحات ، وصُمّمت معظم جدرانه من الزجاج ، ويمتلئ بالأسرة والبشر الصامتين ، يرتدى معظمهم ملابس بيضاء ويجرون خلف بعضهم دون همس.

وضعوني على سرير طويل وعلقوا المحاليل في يدي وغسلوا جسدى وحلقوا شعرى ، وأخلعوني ملابسي ودعكونى بمحلول أبيض يشبه الحليب وتهامسوا حولي كأنهم سيشرحون جثتي ، وتركوني في نهاية اللقاء ورحلوا.

في الصباح دخلت فتاة حليقة الرأس وبحلقت في عيوني ، وأشارت إلى شاشة عالية لأقرأ اسمي ووصف حالتي ، نظرت إليَّ كشيطان ، وجلست أمام كمبيوتر أبيض صغير وأشارت مرة أخرى إلى الشاشة كي أتواصل معها.

وضعت جهازًا سريًا في رأسى ليترجم لغاتهم إلى لغة مشتركة لنتواصل عبر الأثير وسألتنى : " من أنت؟ " فأجبت : " أنا صحفى مغمور دعتني امرأة تدعى حياة إلى بلادكم كي أتبارك بالرب ".

نظرت للوحة فقرأت سؤالها : " ومن هي حياة؟ " فأجبت بصوت مسموع : " رفيقة روحي التي علمتني عشق الحياة ".

وهكذا ظلت متواصلة معي لأكثر من ساعتين ، تسألني وأنا أجيب ، كنت أتمنى سؤالها عن حقيبتى وطبيعة المكان أو هويتهم ، لكنها أشارت لأقرأ ردها : " فقط ليس عليك إلا أن تجيب ، وإلا حقناك بحقنة هواء ملوثة ، تسلب من روحك القدرة على الحياة ، لا تخف ، حقيبتك في أمان وأوراقك سليمة سنعيدها إليك حالما ننتهى من علاجك ".

دخل علينا عشرات السيدات والرجال وأحاطوا سريرى ، طلبوا مني عبر الشاشة ألا أتحدث أو أتكلم حتى ينتهي الفيلم الذى قرروا تشغيله في الظلام.

نظرت إلى اللوحة ، فشاهدت أمي "سماح" بجلبابها الفلاحي تأخذني في حضنها وتحمّيني بطشت الغسيل وتدعك جسدي وتضحك في وجهي كأننا ملائكة.

جرت أمامى على الشاشة صورة عمي وإخوتي والحلاق و"ثناء" ورئيس التحرير وعشرات الوجوه والأماكن الأخرى التي أعرفها وتعرفني ، وبعد ساعتين من المشاهد المتنوعة التي نستها أعماقي أشعلوا النور وكتبوا على الشاشة : " لا تخف ، حللنا ماضيك وروحك ، وهناك عشرات الأفلام الأخرى التي تملأ ذاكرتك وتدل على حياة مشاعرك رغم المصائب التى جلبتها لروحك ".

سألوني عن بعض الشخصيات التي ظهرت أمامهم ولم يجدوا لها أثرًا في بئر أعماقي ، وأشاروا إلى الشاشة ، فرأيت وجوهًا غير مكتملة لـ"ثريا" و "سفروت" و "لولا" و "جهاد" و "ألطاف" وغيرهم ، وسألوني : " من هؤلاء؟ "

أجبت بصوت خفيض : " أبطال روايتي " ، فسألونى : " من أين تستقي حياتهم؟ هل عاشرتهم أو تعرفهم؟ " فأجبت : " فقط أتخيل حياتهم وأسجلها " ، فاستكملوا أسئلتهم : " يمكنك إذن معرفة مصيرهم " ، فرددت باستسلام : " نعم ".

وعندما نظرت إلى وجه أحدهم أشار بغيظ إلى الشاشة لأقرأ سؤاله : " وهل تصنع مستقبلهم؟! " فوضحت لهم أن حياة الأبطال المتخيلين ليست حياة حقيقية ، وأني أتصورها في ذهني لأعيد تسجيلها على الورق ، لكنهم لم يفهموا معنى كلامي ، وكرروا سؤالهم عشرات المرات محاولين اكتشاف كيف لعقل بشرى أن يتخيل مستقبل حياة الناس ويختار لها نهاية؟ حاولت الإجابة بمائة طريقة ، لكني فشلت في توضيح الفرق بين الحقيقة والخيال.

خرجوا من الحجرة يائسين ، وكتبوا على الشاشة : " لا تتحرك حتى نعرف تركيبة جسدك أيها الشيطان " ، وحينذاك سألنى أحدهم : " أخلقت من نور ، أم من نار ، أم عجن الرب جسدك في الطين؟ " فأجبته : لا أعرف ، فغادروا الحجرة وتركوني.

سمعت صوت أحدهم ينعتنى بالمرتد ، نظر إليّ زميله قائلاً : " مازال قلبه ينبض ".

كتبت الفتاة الحليقة على الشاشة قبل رحيلها : " حقيبتك وأوراقك في الدرج ، سنعود إليك في المساء ولن نتركك قبل العثور على منبع مشاعرك " ، وهددتنى فى حالة هروبى بقطع يدى وفقء عينى.

عندما خرجوا أحسست بارتياح غريب فنزلت من سريرى ودخلت الحمام المرفق بالحجرة وشاهدت من الشباك الشوارع والمباني البعيدة فقررت الهروب غير عابئ بجنونهم ، وضعت حقيبتى بين ضلوعى بعد أن اطمأننت على رواياتى وقفزت كاللص من الشباك إلى الحدائق الواسعة.

انطلقت وسط البراح حتى وصلت إلى طريق محاط بالأشجار ونزلت من الرصيف وأشرت إلى أول سيارة توقفت بجوارى ، وقلت لسائقها الذي فتح الزجاج : " المحطة يا باشمهندس " ، استغربني الرجل وسألني عن طريق جهاز معلق في رقبته : " أنت منين؟ " فقلت : " من البلاد البعيدة " ، فسألني ناظرًا لملابسى ووجهى في اندهاش قائلا : " كيف حضرت إلى هنا؟ " وقبل ردى عليه صرخت إحدى السيارات من خلفه فطالبني بسرعة الدخول إلى جواره وانطلق على الطريق وأشار إليّ بالصمت.

بعد ساعات نظر إلى وجهى مرعوبًا ، وسألنى عبر جهازه الصغير عن واجهتى ، فأجبت بتلقائية : " محطة الباص " ، فرد قائلاً : " لا توجد هنا محطات ، الطرق طويلة ، ولا سفر إلا بالطائرات ".

فهمت من رسائله أنه لا يمكننى النوم بمنزله أو بدور العبادة ، أو حتى خيام الزاهدين التى سترفض استقبالى بعد ظهور العلامة السوداء فى وجهي.

نظر في عيوني كأخ ، وكتب على ورقة سوداء : " أترغب في الرحيل لخارج البلاد؟ " أومأت برأسي علامة على الإيجاب ، فكتب على جهازه : " حين يسألك أحد عن هويتك ، لا تنطق حتى يسمحوا لك بالهروب ".

أكد عضويته بجماعة "اللوطى الأحمر" التى تعارض الرب الذى بنى مدينة ميتة ويمتلكها وحده ، ساعدنى إيمانًا منه بجنون الآلهة والبشر المؤمنين بجبروته والذين يعيشون حياتهم منغمسين فى الشهوة كالأغنام.

فهمت من رسائله المتناقلة أنني عضو بتنظيمهم السرى الذى يرمزون له بعلامة سوداء تظهر واضحة وسط جبهة العضو.

طار بسيارته من طرق خلفية وعرة ، واخترق ضواحى وبواباتٍ سرية وتمكن رغم المخاطر من توصيلى سالمًا حتى المطار.

أنزلني عند بوابة السفر ، وبلمح البصر اختفى بسيارته من أمامي ، دخلت الصالة محتضنًا حقيبتى القديمة واقتربت من الشباك وحجزت على الطائرة التى تنوى الرحيل إلى بلادي ، عندما سمعت أصوات المضيفات وهن يعلنَّ موعد قيام رحلتي شعرت بعودة الروح إلى أعماقى.

أثناء مروري من البوابة الأخيرة سألني ضابط الأمن عن أوراقي الثبوتية تلعثمت وأخرجتها من جيبي وسلمتها إليه فأخذها ونظر فى وجهي بجنون قائلا : " أنت متأكد من قرار هروبك " ، فقلت بإصرار : " نعم " ، دق على أوراقي بالختم وضحك مستغربًا جراءتي وقال : " ستنتظرك أجهزة المخابرات والموت أينما عشت ، مع السلامة!! "

" عريان "

عندما توقفت بجوار السور لأتبول ، فوجئت بـ"مينا" نائمًا تحت الجسر الذي يربط الحي بالعالم الآخر ، وسمعت صوت المطر المندفع على الأرض يصرخ ، تك تك تك تك ، كترانيم ليلة الميلاد.

نظرت في وجهه لأتأكد من وعيي ، نعم هو زوج أختي الذي شارك القتلة لحظة ارتكابهم الجرائم ، المسكين الذي راقبهم وهم يخرجون سكاكينهم من جعبتهم ويزهقون أرواحهم دون أن يطرف له عين.

تحول من مسالم إلى مشارك في فرقة الأشرار التي توحدت لحرق جثث البشر.

وفي لحظة مباغتة اختفى صارخًا في البرية غير عابئ بالثعابين والجرذان التي تملأ الأرض ، كان يمكنني مراوغته وإعادته إلى أختي وأبنائها الذين نذروا حياتهم لاغتياله.

تمكن بخططه السرية من تحويل الباعة إلى جزارين يمسكون بأياديهم الجنازير والسنج ويبارزون بعضهم البعض ويراهنون لامتطاء زوجاتهم وبناتهم في المعارك اليومية.

تسحبتُ عائدًا إلى الجسر مرة أخرى ، ففوجئتُ ببعض الصبية يقطعون طريقي طالبين بطاقتي ، تلعثمت لمعرفتي بأصل الصراع وطبيعته بين أبناء الصليب والهلال ، وقلت بتردد : " نسيتها في البيت " ، رد كبيرهم بغضب قائلاً : " مش هنعدى إلا إذا اتأكدنا من هويتك ".

توسلتهم ليغفروا فقدان هويتي ، لكنهم منعوني ولم يصدقوا انه يستحيل العودة إلى حي الفواحش والبحث بين أطلاله عن ذاكرتي خاصة بعد قيام العصابات بحرق المنازل وتحويل الكنيسة إلى مأوى للمجرمين بدعوى تجميع أطفال الشوارع وحمايتهم من برد الشتاء ، ألبسوهم أزياء عسكرية وحلقوا رؤوسهم ودربوهم على حمل السلاح ودافع القسيس عنهم ، قائلاً : " الكنيسة تحتاج لرجال ، إذ لا يهم درجة إيمانهم بالرسالة ، المهم أن يصبحوا جنودًا في المملكه المقدسة ".

لم يهتم القس بنصائح القديسين مبررا جنونه بقيام الشيخ "ميهوب" بجلب الفتيان والصبية من حي جهنم وتسليحهم لحماية الإسلام.

بعد اندلاع الحرائق وانتشار الغل ، قررتُ الهرب خاصة عندما افتخر "زايد" و"ميهوب" في برامجهما التي تناقلتها وسائل الإعلام بأن رجالهما وأنصارهما الملثمين يقومون بارتكاب جرائم تفوق الخيال.

استخدموا قنابل الخرز والخردل والخراء وتفننوا في صنع قنابل من المسامير السامة المخلوطة بالنتنة والشطة التي تعمي رائحتها العيون.

قبل اندلاع الحرائق التى أكلت الأخضر واليابس اتفقت العصابات على حرق العجائز والأطفال ، باعتبارهم سبب الضعف في معاركهم المستمرة.

انبرى فتيانهم في جر النسوة والأطفال من البيوت وأشعلوا النيران وسط الخرابات ، وحملوا أكوام العجائز على التكاتك وفوق العربات الكارو وكتفوهن في سلاسل وألقوهن في النار.

شاهدت بنفسى الشيخ والقس يشرفان على المحرقة من سيارتهم المكشوفة ولم يباليا بصراخ زوجاتهن وبصقا عليهن دون شفقة ، لم يرحما شيبة أم "جهاد" وفقدان بصر زوجة "هدهد".

سمعنا صراخات زوجات الشيخ "ميهوب" وبناته وهن يتوسلن إليه باسم ربه الذى يعبده أن يرحم أجسادهن البريئة ، لكنه ركلهن بأقدامه وأمر العريجى الذى يحملهن باستكمال مسيرته قائلاً : " الناس متساوون كأسنان المشط فكيف أميز بينكن وأنا الإمام الأكبر؟ "

رأيت زوجتى وابنتى عرايا ورؤوسهن تنزف بالدماء فابتعدت عنهن وراقبت الحريق من بعيد ، لم أتمكن من نجدتهن وبكيت كالطير المذبوح على فراقهن بسبب حكم العصابات الذى فاق أحكام القدر.

حاول الفتيان جر مئات العجائز المقيدات بسلاسل حديدية إلى الحريق لكن أرواحهن قاومت فجورهم ، فوقعت النسوة فوق بعضهن وعجز الفتيان عن جرجرتهن إلى الجحيم مرة أخرى ، فأمر القس الصبية ليحضروا اللودر ليرفع جثثهن بمغرفته الحادة متخلصًا من توسلاتهن وبكائهن ، لكن مقاومتهن منعت اللودر من القيام بعمله ، خاصة أن السلاسل أعاقت عمله وأعادت الجثث المرفوعة على مغرفته مرة أخرى إلى الأرض بجوار أقرانهن المقيدات معهن والغارقات في الدماء.

ظلت أيادى الفتيان القوية العارية متأهبة بالسيوف اللامعة والطبنجات المستعدة لإطلاق النار فى عيون العجائز ، فى اللحظة نفسها شاهدت "الأمين زكى" يشير إلى فتيان آخرين بإلقاء الجاز والمازوت على وجوههم.

وعندما أنهوا مهمتهم ألقى القس من سيارته التى يركبها مع "الأمين زكى" والشيخ عودًا من الثقاب وطاروا بالسيارة بعيدًا عن النار ، فأطلقت أجسادهن دخانًا أسود مميتًا نزع الإحساس من أرواح الجميع.

ارتفع اللهيب الأسود في السماء ، وسمعت صوت الشيخ من مئذنة الجامع "الخربان" مؤكدًا جريمة النساء باعتبارهن سبب البلاء في دنيتنا ، وأكد القس "زايد" من ميكرفون الكنيسة المحروقة الإيمان بالقدر والمكتوب ، وطالب الجميع بفقد الذاكرة والتعود على حياة العصر الجديدة.

قرر الجميع الهرب ، لكن اللصوص والمتسولين الذين ينامون في الخرابات أحاطوا بالبشر من كل اتجاه ، وأصبح بلوغ الجسر الذي يقف عليه كل يوم المئات للعبور منه إلى العالم الآخر الأمل الوحيد للنجاة ، لم يسمح رجال جهنم لأحد بالمرور مدعين أن منطقتهم الآمنة لا تقبل إلا أبناء عمومتهم أمثال "ستوستة" الذي هرب برفقة "ثريا" لتعليم نسائهم الطرق الباهرة في النكاح.

يقولون إنها فتحت بيتًا للمتعة تؤهل فيه نساءهن الشرقانة من جفاف فروجهن ، يخرجن من خيمتها كأميرات بعد معاشرة عشرات الرجال مستعيدين أنوثتهن كالبنات الطازجات.

بعد المحرقة ، قُطعت شبكات التليفون والمياه والكهرباء والصرف خدماتها لأن فتيان حارة الأوباش الذين يسرقون الكحل من العين يتاجرون في الخدمة ، حتى إن ضابط القسم وأمناءه هربوا ولا يعرف أحد مصيرهم ، الوحيد الذي رفض الرحيل هو "الأمين زكي" بعد تحوله إلى حكيم محايد في حروب عصابات النصارى والمسلمين ، يأخذون برأيه بعد كل معركة ويأتمرون بأمره ، فقرر الاستمرار في أرض المذبحة ، بدعوى أن الله لم يقرر بعد لحظة خروجه إلى العالم الآخر.

هربت زوجته وابنته "تومة" إلى جهنم ، ويقال إنه سهّل للخاطفين مهمتهم حتى لا يراهما تعاشران فتيان العصابات أو تغتالان مثل ابنه "حسن" ، ومع ذلك يعتقد البعض أنه مازال على صلة بنسيبي "مينا ".

تذكرت هذه المآسي حين زجرني رجال الأجهزة التي تحيط بالجسر وهددوني بالقتل إذا لم أغادر الممر في أقل من دقيقة ، فعدت لألتحق بالجموع الهادرة تحت الجسر ، حينذاك سمعت صوت "هدهد" يصرخ وسط المجتمعين قائلاً : " لازم نعدى لجهنم ، احنا مش هنرجع للموت برجلينا ".

فى تلك اللحظة أحاطنا رجال القس من جهة الشمال ورجال الشيخ من جهة اليمين وأطلقوا الرصاص العشوائي في وجوهنا ، انبطحنا على الأرض المملوءة بالروث ، وصرخت الفتيات الهاربات من التهام أجسادهن طالبات الرأفة ، وتملكنا الخوف بسبب الظلام المحيط والرصاص الذي لا يفرق بين عدو أو حبيب.

الأصوات تتداخل في عقلي وأبحث عن وجه أحد يعرفنى فلا أجد ، أقدامى تدوس على الأرض باحثة عن موضع قدم آمن فلا تجد ، أصابعى تغرس في الطين المملوء بالدم واللحوم غير عابئة بالعظام البشرية ، أسمع صراخات وآهات بين أفخاذي ، وتلتهم أصابعَ أقدامي أسنانُ امرأة قوية ، فأجري مبتعدًا عن الجثث التي لا يعرف أحد هويتها.

أثناء هرولتى فى الظلام عثرت على بعض الأحجار المرتفعة عن الأرض فصعدت عليها وجلست فوقها غير عالم بمصيري ، وعندما حل السكون أغفلت عيني ونمت.

التعب يهد جسدي والأمل في النجاة يلازم روحي ، أسمع أصواتًا تأتيني من كل اتجاه ، مستعيدًا ذكرى يومى الأخير بعد اندلاع الحرب.

كنت أجلس وحيدًا فى صالة شقتي أتصنت على أصوات الدق المرتفع على الأبواب والشبابيك ، وفجأة دخل روحى هاجسٌ غريبٌ وسمعت صراخات نسائية تخرج من المطبخ يتبارزن بسكاكين ومعالق وشوك.

جبت الشقة باحثًا عن أبنائى فغاصت قدمى بالأرضية الغارقة في مياهٍ داكنة ، جريت مسرعًا ناحية الحمام لأغلق الدش الذي ملأ الحوض بمياه عطنة شبيهة بالبراز وخنقت رائحتها الكريهة خلايا عيني وأعمتنى ، سمعت صوت التليفزيون يصرخ بالصالة معلنًا بدء الحرب.

نظرت من باب الحمام على الأنتريه المملوء بأطفال صغار لا أعرفهم ويجلسون كأنهم في منازلهم يلعبون السُلم والثعبان وينظرون في نن عيني بغرابة ، اقتربت منهم وصرخت في وجوههم ليغادروا بيتي ، تجاهلوا دموعي واستكملوا اللعب.

تملكني الفزع حين سمعت صراخات النساء الحوامل في الشوارع ورجال القس والشيخ يحاولون تفجير بطونهن ، عدت من خيالاتي وفتحت البلكونة مرعوبا من انتشار الخوف في أركان الدنيا ، تفاجأت برايات لصلبان وأهلة تتبارى مع رايات أخرى وتتلاطم في السماء معلنة انتصارها .

شاهدت وجوههم المخيفة تشتبك في مجزرة لم أتخيل أبدًا رؤية أطنان الدم النافرة والمتطايرة من رؤوسهم على الأرض ورأيت شعاع الغل الذي ملأ السماء من حولي بالحسرة.

دخلت مرة أخرى مسرعا إلى شقتي وسمعت أصوات الكنائس والمآذن تصرخ معلنة بدء الهدنة ، شجعني ذلك لأعاين الشقة التي امتلأت بالأغراب ، سرت على البلاط الذي كان يمتلئ بالدماء باحثًا عن نساء المطابخ ، وعندما فشلت في العثور على أثرهن نظرت إلى كنبة الأنتريه فلم أجد الأطفال الساخرين من رعبي.

وعندما سمعت صوت "ألطاف" في الشارع ، نظرت بريبة من الشيش وشاهدتها تسير مع بعض الفواحش اللاتي يتقدمهن عدد غفير من الصبية ويرفعون على أكتافهم ابنها سعد ويهتفون بالحرية للنسوان .

ارتدى أغلبهن ملابس خفيفة أظهرت مفاتنهن ولطخن وجوههن بالكريمات والألوان وأحاطهن بعض الصبية رافعين السكاكين في أياديهم لمواجهة أنصار الشيخ والقس ، ناديت على أختي وبعض الداعرات ، تجاهلن صوتي وابتعدن عن المعركة ليعاشرن العرايا ، خلعن ملابسهن في وجود الجميع وفتحن فروجهن باكيات كمحرومات من الشهوة والقذف وتجمع عليهن الفتيان كسبايا ليفجعوا فروجهن ويمدوا أرواحهن بالمن والسلوى.

فتحت باب الشقة عابرًا الظلام الذي ملأ فضاء السلم محاولا النزول للشارع ، داست أقدامي على عظام القطط والكلاب والفئران النافقة ، لم أهتم بالأصوات التي تلاحقني وواصلت سيري غير عابئ بالرعب المنتشر في الأركان ، وصلت بأعجوبة إلى شارع بعيد ، أحسست بأن الحي تحول إلى مرتع للنسور والثعابين التي تتجول بحرية على الأسفلت الذي امتلأ بالجثث العطنة.

لم يهمني كل ذلك ، وارتعبت من تصور رؤية "مينا المسكين" ، الذي تآمرتُ عليه لتأخذ أختي منزله والقيراطين اللذين ورثهما عن أبيه ، يمكنه الآن قتلي والأخذ بثأره دون عقاب.

استوقفني بعض الصبية وأخلعوني ملابسي قائلين : " مبيعديش من شوارعنا إلا العرايا " ، لطخوا وجهي بأياديهم وسكاكينهم وسبوني وتوعدوني بالقتل إذا نظرت في عيونهم ، خلعت ملابسي الداخلية وسرت مع مئات البشر الهاربين حتى وصلنا إلى السور الذى شيدته العصابات يوم إعلان الحرب ، ملأ الرعب وجوهنا وانتشر الخوف بيننا ورددنا جميعا مواويل الخراب وسمعنا موسيقى الموتى التى تعزفها معددات تسير خلفنا كدوقة تعلن ميعاد انتحارها.

عند وصولنا أسفل جدار السور حاول بعضنا أن يقفز من فوقه ، والتحم الجميع ككتلة خرسانية واحدة ودخلنا فى قلب حوائطه ، وكررنا المحاولة دون اتفاق ، وصرخنا بعلو الصوت : " آه " ، فتهدمت أركانه وخرجنا من حي الفواحش إلى براح وخرابات مملوءة بالعظام والحيوانات.

أطلقت علينا العصابات رصاصها، ولم نعبأ بجنونهم وجرينا مسرعين في اتجاه الجسرراغبين في العبور للعالم الأخر مخترقين أكوام القذارة وجثث البشر والكلاب والحيوانات النافقة التى تحيطنا من كل اتجاه ، وأثناء هرولتنا من الجحيم سمعت صوته قائلا : " توقف يا عريان " ، تصلبت أمامه كالحائط ، ونطق لساني متسائلاً : " مش انت جوز أختي مينا المسكين؟ " منعتني عيونه من الحركة حتى هرب الجميع وبقيت وحيدًا في مواجهته ، أخذني من يدي قائلا : " عايز تهرب لجهنم ليه يا مقدس " ، وسحبني مخترقًا جموع فتيان العصابات حتى الجسر وتركني عند أوله ، ولولا رحمة الله لقتلني رجال الأجهزة ورموني بمصرف الرمم الشهير ببركة المخروبة.

أعادني ضوء النهار مرة أخرى إلى وعيي ونظرت حولى لأتفاجأ بنومى طوال الليل على كومة من العظام والجثث التى تبث روائح الدم ويفوح منها أثيرٌ مميتٌ يغرق الكون في الكآبة ، ومن بعيد نظرت إلى الجسر فرأيته خاليا ، جمعت قوتي وتسحبت مترجلا عليه لعلني أوفق هذه المرة وأعبر سالمًا.

فوجئت بجثة "هدهد" ملقاة ، وحين نظرت إلى عيونه ، أمسك بقدمي متوسلا اصطحابى ، فركلته بعيدًا ، لكنه وقف غير عابئ بجراحه قائلا : " ممكن أعدى معاك يا خوى ، خذني للجانب الآمن يا مقدس " ، لم أتأثر ببكائه وسرت على الأسفلت لأنجو بنفسي ، وعندما نزلت قدمي في بر جهنم وشاهدت "سوسنة" ، انفرجت أساريري لترحيبه بوجودنا قائلا : " معلهش يا عريان هندبحك أنت وهدهد ، فأهل جهنم لم يأكلوا لحومًا حلالا منذ أيام ".

حاولنا الهروب والعودة إلى جحيم حي الفواحش ، لكن سكاكينهم اللامعة أنهت المهمة، فسبحان الله المنجى من المهالك!

في تلك اللحظة سمعت صوت "مينا المسكين" مرددًا : " لا مهرب من مصيرك " ، رغم خروج روحي بتلك اللحظة من جسدي ، لكنى تساءلت رغم غيابي عن الوعي : " هو أنت شفت مينا يا عريان أم خيالك المريض وضعه بطريقك ليأخذ حقه من جبروتك وشرك وتنال مصيرك ؟! "

" جنون "

صعدت الطائرة غير مصدق هروبى من البشر القابعين كالأصنام بجبال الجليد ، فقدت ذاكرتى التى ذابت في رحلة البحث عن إحساسى وسط طرق نظيفة وحياة مرتبة ومدن صامتة كالموتى.

وعندما انطلقت من الأرض إلى السماء وشاهدت المدينة التى دمرتنى تيقنت من نجاتى ، تحسستُ قدمى ويدى وتذكرتُ تهديدات أباطرة صاحب المصنع الذين قرروا يوم جنونى وإصرارى على الهرب بقطع يدى حتى لا يمكننى التفكير فى الكتابة مرة أخرى.

طرنا كثيرًا فوق مياه البحر ونظرت من الشباك باحثًا عن أثر الحياة فلم أجد ، دخل الأرق روحى بسبب جهلى بمصيرى ، فأين سأذهب ، وهل أعود إلى منزل إخوتى وعمى؟ وهل يتذكروننى؟ ترددت بين نفسى مقررًا النزول بحى الجامعة وأستأجر شقة جديدة في الشوارع المزدحمة بالباعة حتى أستقر على كيفية بدئى لحياتى الجديدة.

فتحت حقيبتي التي تخفي روايتي وتلمست أوراقها كوليدى ، وحين خفت من وجوه الركاب الذين ينتظرون نومي ليسرقوها وضعتها على الكرسي وجلست عليها ، فنظر جاري بغرابة إليَّ قائلا : " حطها على الرف" ، تجاهلت نصائحه وخرج صوتى كأننى شخص آخر قائلاً : " أنا مرتاح كده ".

عادت فجأة إلى أعماقى وجوه المؤمنين في بيت الرب برؤوسهم الحليقة، ورائحة أكواخ الخشب في الغابة التى نمت في رحابها سنوات ، وسمعت همس أطباء المستشفى وهم يطالبون الفتاة الحليقة بضرورة استخراج شهادة وفاة لجثتى فى الصباح ، ملأ البياض الذي غطى حي الصمت أعماقي ، كأنهم تركوا صورهم في روحي ليعرفوا آثار ملء أعماقى بتاريخهم الملوث ، المشاهد تعود وتختفي دون تحكمي في السيطرة على ترتيب الأحداث التي جرت.

سألت نفسي وأنا أهبط سلم الطائرة ، هل تركتنى السلطات لأهرب بإرادتى؟ وما علاقتهم بالرجل الوسيم صاحب مصنع المساحيق؟ وهل يعرفون "أيمن" و"حياة"؟ وكيف صنعوا حيًا بهذا الصمت والبياض ؟!

بعد تسلم حقيبة ملابسى من على سير المطار ، استقبلني شاب وسيم وسحبني من يدي قائلا : " أنت موقوف يا سيدي ".

شعرت بالذعر ، فماذا فعلت؟ حاولت التحدث معه لأفهم السبب ، لكنه نظر فى وجهى قائلا : " مش هتأخر كتير ، هناخد بعض المعلومات ونسيبك ".

جلست إلى جواره في عربة فخمة وانطلق في شوارع نظيفة حتى وصلنا إلى مبنى زجاجى محاط بالأشجار ، استقبلني آخرون باحترام ودخلنا حجرة فسيحة، ورحبوا بوجودي قائلين : " أهلا برجوعك ".

أحضروا أباريق الشاي والقهوة وجلسوا حولي شغوفين بسماعى كأني أملك أسرار العالم، سألتهم عن سبب استيقافي ، فرد أحدهم بثقة : " لما نفهم كل حاجة هنسيبك ، ساعدنا " ، تحدث ، علامةً على الموافقة منتظرًا أسئلتهم.

باغتوني لأحكي عن نفسي وتجربتى ، فسردت تفاصيل حياتي وتاريخ أهلي ودراستي وعملي بالجرائد وكتابتي وحياتي بشقة "حياة" وحي الجامعة وعلاقتي بـ"ثناء" ورسالة حبيبتى ودينها ورحلتي إلى الأراضى المقدسة ووجوه العمال الخشبية فى مصنع المساحيق.

حكيت باستفاضة لدرجة أنهم غيروا مراتٍ عديدة شرائط الأجهزة التي تلتقط كل كلمة وإشارة لتحللها وتعيد إليهم النتائج في ثوانٍ ليتأكدوا من صدق مشاعرى.

أخذوا حقيبتي وروايتي ، وسلبوني تليفوني وحافظة نقودي وأوراقى الثبوتية دون الاهتمام بذعرى أو رفضى ، وسحبونى إلى حجرة أخرى مجهزة للنوم ووضعوا بعض الأرغفة والجبن على الترابيزة ، وحين سألتهم عن روايتي قالوا : " هنرجع بكرة ، مش هنتأخر ، متخافش ، احنا حراس الحقيقة ".

هرب النوم من عيني بسبب الأحداث التي أعيش بداخلها وتجعلني أتأمل ما حولي برهبة ، كأنني أحيا داخل فيلم لا أعرف نهايته ، عندما ملأتني هذه الفكرة أكلت بنهم وشربت علب العصير وأحسست بامتلاء بطني فغرقت فى النوم ، فى تلك الليلة لم يأتي بأحلامي سوى أطباء مستشفى حي الصمت وصور القديسين الذين رافقوا " حياة " في بيت الرب ، كلهم صرخوا في وجهي قائلين : " أنت مين ، وفين إحساسك؟ "

حاولت سرد تاريخى ، لكنهم أعادوا صراخهم في وجهي قائلين : " يا كذاب ، انطق بالحقيقة وإلا سلخنا جلدك" ، وقفت "حياة" بعيدة عنهم وقلّبت في روايتي وقالت والبكاء يملأ عينيها : " كيف تجرأت على خيانتي وكتابة مشاعري أيها الكافر؟ "

الغريب أنني رأيت وجه "مينا المسكين " يدخل وسطهم ويضع على أعينهم الغشاوة ويسحبني من يدي ويعود بي إلى حي الفواحش ، وعندما رأيت الخراب الذي حل على مقهى "بقدونس" ومنزل "ثريا" ، سألته والبكاء يملأ عيني : " أين كنت؟ " ابتعد عني غير عابئ بجسدي المجروح ، أمسكت بقميصه قائلا : " أين ستذهب؟ " لم يرد واستكمل سيره مبتعدًا ".

جريت وراءه متسائلا عن السر الذى جعله يقنع "ثريا" والدكتور "سمبو" و "الأمين زكى" بالمشاركة فى خطة الخلاص ، وكيف قبلوا التحدى وتمكنوا من تهريب "ملاك" إلى بلدته كى يترعرع وسط الحقول والمواشى ويزرع الأرض التى هجرها وتركها بائرة ينعق فيها البوم والغربان.

ابتعد عنى غير عابئ بأسئلتى وفوجئت ببنت صغيرة تجلس بجواري والدماء تلطخ ملابسها ، فسألتها عن هويتها ، فردتْ بثقة : " أنت الوحيد الذي تعرف " ، باغتتني بحدة تسألنى: " لماذا حبستَ أمي يا جاحد؟! " فسألتها : " أنتِ مين؟ " فردت بحزن : " أنا مريم بنت جهاد وأنت قاتل أبي ، أين جدتي يا مجرم؟ " واستكملت بأسى : " ولماذا أشعلتَ النار في منازل الحي ، وبعثت مينا إلى شقتنا لنهرب من الممر وتركتنا عند الجسر ولم ترشدنا لنعبر إلى الجانب الآمن؟ " وقبل أن أرد عليها فوجئت بالحجرة تمتلئ بالمحققين الذين صرخوا في روحى قائلين : " صح النوم ".

وقبل أن أضع شربة ماء أو لقمة خبز داخل فمي ، سألوني عن الحي و"بقدونس" و"مينا" وباقي الأبطال ، فأكدت لهم أنهم مجرد شخصيات خيالية ولا يوجد أشخاص حقيقيون بهذه الأوصاف والأسماء ، فضحكوا ساخرين من كذبى ، أخرج أحدهم أوراقى وأشار إلى الأسماء التى سجلتها بخط يدى وقال بغضب : " أمال مين اللى كتب مذكرتهم ، أمي ، اعترف لنطلق سراحك ".

سحبوني ونزلوا صامتين من المبنى ، وركبنا سيارة فخمة مملوءة بالشباب الوسيم ، وأجلسوني بجوار السائق قائلين : " اوصف لينا طريق المدينة اللى عشت فيها مع المرأة اللى سافرت اليها في الأراضى المقدسة ".

درت معهم في أحياء مزينة بالأشجار والحدائق لكنها لا تشبه حى حبيبتى، وحين أعيانا التعب والبحث قالوا : " مش مهم ، هنروح جنب الجامعة ونشوف الشقة التي كنت عايش فيها مع أخوك ".

أدخلونى حيًا غريبًا مليئًا بالأوباش والباعة المتجولين والمحلات المزدحمة بالألعاب والصور التى لم تراها عيني ، ظللنا نلف وندور في الشوارع الملاصقة للجامعة وللأسف لم نعثر على الشقة التى نمت بحجراتها سنوات مع أخى.

ظللنا أيامًا طويلة نبحث عن القرية أو الأماكن التي عشتُ فيها منذ ولادتي حتى الآن لكن محاولاتنا باءت بالفشل.

توقفوا على الطرق الزراعية لأسأل الشيوخ والرجال المتلحفين بالسماء عن اسم قريتى ومكانها أو مدرستى وعائلتى ، لكن لا أمل في العثور على ذكرى واحدة تعيد هويتي.

سألتهم عن تليفوني كي يتصلوا بأصدقائي أو إخوتي ، تجاهلوا طلبي قائلين : " معلهوش أية ذاكرة ، حتى بطاقتك وهويتك بتدل على أنك كذابٌ " ، سلموني جواز سفرى وذهلت من صورتي الواضحة والمكتوب تحتها اسم آخر خلاف اسمي ، يارب كيف حدث كل ذلك ومن ذلك الشخص الذي خرج ودخل هذه البلاد؟!

حاولت توضيح غدر صاحب المصنع المبتسم الذى غير هويتى ليتمكن من استعبادى ، لكنهم سخروا من صوتى قائلين : " طبعا لازم تألف قصص علشان تنجى من العقاب ".

انطلقوا بسيارتهم إلى حي غريب ومروا من على جسر تحيطه الأشباح ووقفوا في منتصفه ، وعلقوا مكبرات للصورة فوق ربوة تمتلئ بالجثث العفنة ، وأنزلوني من السيارة لأنظر من جهازهم واصفًا المكان ، شاهدت حي مينا المسكين ، ودرت بالمنظار حتى وصلت إلى مقهى "بقدونس" الذى تهدم وشاهدت "الأمين زكي" والقس "زايد" والشيخ "ميهوب" وعصابتهم محملين بالبنادق والجثث والدماء تملأ الأرض من حولهم.

كدت أسالهم عن مصير "مينا" و"مريم" و"جهاد" و"ملاك" و"سفروت" ، لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة خائفًا من اتهامى بالجنون ، قائلا لنفسى : " ولكن ما المانع في رؤية الأبطال المتخيلين مادامت عقول الناس يمكنها تصديق قصصهم كبشر حقيقيين والإحساس بحزنهم وفرحهم كأنهم رفقاؤهم أو خصومهم؟! "

فى تلك اللحظة قرر الشباب الرحيل بناءً على نصيحة البلطجية الذين يحرسون الجسر ، وحينذاك اقتربت فتاة يشع وجهها بالنضارة من السيارة ونظرتْ في عيني كأنها تعرفني ، قائلة : " أرسلتني ثريا إليكم لتحررو أمي ومينا من الظلام " ، لم يهتم الشباب الذي يقودني ، لكني وجدت

نفسـي أشير إلـى السرداب المخفي الممتد مـن تحت الجسـر إلـى حي الفواحش قائلاً كعراف : " سيقابلك ابنه هناك ، ثقي بروحه ، وأقنعيه برسالتك حتى تصلوا إلى الحقيقة ".

سحبوني لاركب السيارة ونبتعد ، وعدنا من طريق مختلف إلى مبنى آخر بحي فخم يشبه حي الصمت الذى ودعته في بلاد العجايب ، وسألوني بغرابة عن ديانتي وجنسيتي ، أخلعوني ملابسي وبحثوا في جلدي وبين أظافر أصابع قدمى وداخل فتحة عضوي ومؤخرتي عن أي دليل أو أثر يكشف هويتي.

سـألوني عن فرائض الإسـلام الخمس وترانيم العذراء ووصـايا موسـى ، وانطلق لسـاني شارحا طرق الزواج والصلاة وموانع الإيمان ودليل الإخلاص في الديانات الثلاث.

الغريبـة أن إجابتي أربكتهم فارتـابوا مـن أمري وتركوني مندهشين ، وقبل حلول المسـاء عـاد أحدهم وسـحبني إلـى حجـرة أخـرى جيـدة التهويـة وبـداخلها حمـام ودولاب يمتلـئ بـالملابس الداخليـة والفوط، وقـال بسـخرية : " مـش هتخـرج مـن هنـا إلا لمـا نعـرف المصـدر اللـى بيزودك بالمعلومات عن حياتنا" ، وحين همَّ بغلق الباب نظر في عيونى قائلاً : " فين مشـاعرك ولا انت اتولدت بدون إحساس؟! "

تركنـي وخـرج فجريت مسـرعا إلـى حقيبتـي التي ألقاها علـى السرير وفتحتها خائفًا علـى إرثي ، فابتسمت مطمئنًا على حياة أبطالي، قلبت في صفحات روايتي، فعادتْ الحياة إلى روحي ، أخذتها في حضني ووضعتها تحت رأسي ونمت.

" مريم "

حملتني "ثريا" من وسط النار واتجهت للجسر في حماية "الأمين زكي" و"سوسنة" وأنصار القس والشيخ ، مودعين الظلام والدم اللذين عشعش في أركان البيوت والحوارى.

عبرنا سالمين إلى جهنم ، وأشار رؤساء العصابات إلى صبيانهم ليأخذوها إلى منزل المتعة لتعلم نساءهن فن النكاح ، حملتني بين ضلوعها وأصرت على وضعي بحجرتها واشترطت ألا يدخلها سوى "تومة" بنت "زكى" وأمها التى تمكن الأمين من ترحيلهما بعد اغتيال ابنه "حسن" ، وافقت العصابة على خروجهما مقابل مدهم بالمعلومات السرية لجهاز الأمن .

عشنا في جهنم كأغراب رغم انطلاقي مع "تومة" وسط الجموع غير عابئين بأنوفهم المشقوقة.

أبرمتْ "ثريا" الصفقة مضحية بحياتها لتأخذني بعيدا عن جنون القس والشيخ كأمل أخير لحماية ذاكرة الحي.

وعندما كبرتُ واشتد عودى لقنتنى الوصايا لحماية فرجى وروحي من الدنس وارتفعت قامتى كجبل ، وأبى عقلى أن ينحط أو يستجيب لمكرهم وإغراء أعتى فتيانهم بإمتاعى وري شبقى الذى ملأته بالنور.

حمانى وجود أم "تومة" من شر الصبية والرجال الذين رغبوا في معاشرتي ، كنا ننتظر "ثريا" كل يوم لتعلمنا سر الحب والخلاص ، حكت عن أصل الحي ونشأته وحياة المعمرين الأوائل وزهدهم ، لم تترك ذكرى لمكان أو همسه لامرأة أو لرجل إلا اكتشفت معنا كيف خلقتها وطورتها الأحداث.

بكت واصفة جمال "لولا" عشيقة أبي ، واندهشتْ مثلنا لقلبه الضعيف الذي لم يتحمل وصفها لقبلة "سفروت" وأدى إلى مفارقته الحياة منتحرًا بإطلاق الرصاص على نفسه ومستسلمًا لخيبة أمله وبغض حبيبته.

تعمل طوال الليل في بيت المتعة الذي يتوسط ميدان جهنم ، تجهز النساء والفتيات لليالى بهجتهن ، تعلمهن محن النساء وطرق اللوع التي يرغب الرجال بالاستمتاع بها أثناء نكاحهن ، روت مشاعرهن من بحر النشوة الواسع التى عاشت بين أمواجه.

وحكت لنا عن الحرائق التي اندلعت في السجن ومجزرة حرق أطفال الحي ونسائه ، بهذا اليوم المشؤوم وقف القس والشيخ يصليان للرب ليحمي حي الفواحش من الخونة والداعرات ، وكلما ازداد الصراخ بسبب النار التي تحرق لحومهن هلل الشيخ والقس وأنصارهما كأنهما يتشفيان في العقاب الإلهي الذي نزل من السماء.

لم ينجُ من شرهم إلا "ملاك" ابن "مينا" التى اشترطت "ثريا" أن يتم ترحيله هو الأخر إلى قريته قبل موافقتها على الصفقة ، وعلى الرغم من رفض القس لأنه نصراني مؤكدًا استحالة هجرة شباب الصليب من المعارك ، لكن الشيخ و"الأمين زكي" وافقا قائلين : " ولاد العصابات مبيفرقوش بين البشر بسبب الأديان ".

عرفت منها أن ملائكة على هيئة رجال مبعوثين يعلمون "مينا" رسائل الحب وطرق مواجهة الشر ، ويدربوه على عشق الزرع والنور ،وعلمنا انه التحق بمدرسة فرسان الآلهة التى حولته إلى أسد جسور يمكنه الفتك بألد أعدائه ، لدرجة أن صيته وحكايته كانا يصلان في جهنم ، وعندما تساءلت عن مصير "مينا المسكين" ، لم تعطنى الجواب الشافى ، كأن في الغموض الذى يحيط بحياته شيئًا إيجابيًا سيحررنا جميعا من الأسر.

أكدت في اجتماعاتنا مع "ثومة" وأمها أن الحى تحول إلى خرابة وأصبح أهله لا يعرفون إلا لغة القتل ، لدرجة أن أبناء النصارى وبناته التحقوا بعصابات الشيخ والتحق فتيان المسلمين بعصابات القس ، آملين جميعًا في الطعام وامتطاء الرجال أو النساء الموجودين بتكايا البلطجية ، لم يهمهم الإيمان بتضحيات الرسل ووصاياهم لزرع وإنتاج الحب بقدر سد حاجات وإشباع شهواتهم لدرجة أنهم حولوا منزل "ثريا" إلى وكر للقس وعصابته ، وجعلوا البار الذي كان يسهر فيه والدي مقرًا لعصابة الشيخ ، بعد حرق بيوت العبادة ، وباتت الصلاة ذكرى منسية لا تهم أحدًا.

وصفت "ثريا" وجوه الرجال والنساء الذين ملؤوا حياتها بالسعادة وغادروا إلى الجانب الأخر أو ماتوا في الحرائق التي مازالت مشتعلة ، ورغم علاقتى القوية بـ "ثومة" ، لكنى اندهشت لصمتها كأنها تحمل في قلبها سر الحياة الذى لا يعلمه أحد.

عندما حاول زعيم جهنم امتطاءها بالقوة وهى عائدة بزجاجة المياه التى يوزعها أتباعه على الرعايا ، ونادى عليها بصوته الجهورى ، توقفت أمامه كنمرة قائلة : " عايز إيه يا قاتل؟ " أمرها بالاقتراب من مجلسه الذى يفوح برائحة الفحش ، أطاعته في صمت ، وحين شاهدها تقف مرفوعة الرأس أمرها بالسجود فرفضت غير معنية بمصيرها.

أمر زبانيته بتمزيع ملابسها ، لتظهر مفاتنها كوردة متفتحة ، وقبل أن يفعص حلمتى نهديها جرت أمها الجريحة مفزوعة لتغطى عورة ابنتها ، لكن المجرم أمر قواده بقتلها ، رغم الدماء التى ملأت جسدها لكنها تمكنت من تغطية نهود وفرج ابنتها وسحبتها بعيدًا ، وقبل وصولها إلى الحجرة وقعت على الأرض فاقدة الحياة.

جاءت "ثريا" إلينا بعد عملها بالخبر لتودع المسكينة ، لكن روحها قد خرجت إلى بارئها ، غسلنا جثتها والدموع تذرف من عيوننا ، غطينا وجهها ، وحملنا جسدها ليلاً خارج الحى ودفناها في التراب وعدنا مكلومين.

بعد هذه الليلة أصبحت "نومة" قرينة روحى ولم يغير موت أمها طبيعتها المسالمة ، أصبحتُ كالمهرة التي ترفض أن يركبها أو يجاري سلامها أحد ، وعندما رمقنى رئيس العصابة وأنا أصفع أحد رجاله الذى حاول معاشرتى في خيمته ، وطالبنى بالحضور إلى عشته ، فى الليلة نفسها اتفقت معنا "ثريا" على عودتنا للحي وهمست بهدوء : " هيستناكم هناك راجل عجوز جنب الجسر وهيرتب كل شيء لدخولكم سالمين ".

في هذه الليلة دعت "ثريا" رجال جهنم إلى حفل كبير ليبتهجوا بنكاحها مع رئيسهم المغلول في المهرجان المفتوح لابتكار الأوضاع الجديدة التي تخلب عقول الرجال والنساء المحرومين من النشوة.

روتهم جميعا بمياه المورد المخلوط بروح الشمر والجنزبيل وزهرة النشوة ، فانتعشوا وغابوا عن الوعي منتظرين مفاجآت الداعرة.

وحين ركبت رئيسهم العاري أشارت بيديها إلينا كي نغادر ، ارتدينا ملابس الفرسان ، وحملنا قنابل السم والنار في جيوبنا ، ورحلنا.

عندما وصلنا للجسر نظرت بعينى المفتوحتين كالذئبة من حولي ، فسمعت صوت أحد الرجال مرحبا بعودتي قائلاً بلغة غريبة : " أهلا بسيدة النساء " ، فنظرت إليه قائلة باندهاش : " انت مين "، فانشغل بالشباب المحيط بجسده ، واشار لي لأرحل من نفس الجسر ، ولكن في الاتجاه المعاكس.

قبل وداعى نظر في عيني وقال : " ده قدرك المكتوب عندي ، اعبري الجسر وانزلي وسط الوحوش وعيدى إنسانيتهم ، مستنيكى فتى بيحث عن والده ، إنها فرصتكم الأخيرة لنجاة ذاكرتكم ، متترددوش في مواجهة الشر ، فالحب ينتظركم ويقودكم للخلاص ".

حين تركتي أسفل الجسر وركب سيارته الفخمة مع بعض الشباب أشار إلى نفس السرداب الذي هربت منه يومًا ما ، ناديت على "تومة" كي نغادر المكان المظلم ، تجاهلتني وجلست وسط الظلام تتبول وتتطهر من الدنس ، في هذا الوقت تفاجأت بخروج شاب يمتلئ بالنضارة من بين الأنقاض ، أخرج خنجره متأهبًا لطعنى ، فذكرت اسم "مينا" فرجع إلى الوراء وسألني : " أنتِ مين؟ " فأجبت بثقة : "مريم" ، فاستكمل : " عارفة مكان المسكين؟ " فرددت كقديسة : " أبوك مقيد في أحد البيوت ، وطالبتنى ثريا باصطحابك لفك أسره ".

اتسعت حدقة عينيه ، متسائلا : " أنتِ من الحي؟ " فحكيت حكاية "بقدونس" و"ألطاف" و"سعد" و"سفروت" و"عريان" و"هدهد" ، فسألني بثقة : " وهل يمكننا تحريره؟ " فقلت بكل إصرار : " مفيش أدامنا بدائل ، حياتهم مرهونة بنجاحنا ".

اقتربت "تومة" منا ولم تنطق بكلمة واحدة ، وسرنا حاملين أرواحنا فى أيادينا .

" جسر "

في الصباح أخذوني من حجرتي وانطلقنا في سيارة فخمة وسط الشوارع ، دون أن ينطق أحدهم بحرف.

احتضنتُ حقيبتي وتأكدتُ من وجود أبطالى بداخلها ونظرت حولى بريبة ولم أهمس ، دخلوا حوارى مُتْربة ومروا من أسواق مملوءة بالبشر والمقاهي والمطاعم والخرابات ، وتركونى وسط ميدان مملوء بأكوام القمامة.

سلموني أوراقي الثبوتية وقال كبيرهم : " انزل ".

اختفت سيارتهم وفتحتُ تليفوني واندهشتُ لوجود اسمي الذي أعرفه مكتوبًا على الشاشة ، لكنى لم أعثر على أسماء من يعرفونني ، جلست على الأرض وتحسست المحفظة وراجعت نقودى ووجدت كارت الفيزا ورقم تليفون منزل أبى واسم القرية وعنوانها ، استعدت أنفاسى باحثًا عن السيارة والأشخاص المجهولين لكنى لم أعثر على أثرهم ، فنظرت حولى مندهشًا من لون الدخان المتصاعد بأركان الميدان.

نظرت لعيون المارة وللفضاء المغبر حولى مرتعبًا من تصورى بفقدانى العقل ، إذ يجوز أن تكون كل هذه المطاردات خيالية ، تحسست وجهى وحاجاتى ونظرت مرة أخرى إلى سيارة الخاطفين ولم أعثر على أثرهم ، ارتَحتُ لفكرة جنونى وفقدتُ أعماقى صورَهم وأسئلتَهم وملاحقتَهم ، إذ حدث كثيرًا أن شاركت بأحداث وعجز عقلى عن تذكرها أو تفسيرها!

جلست على الرصيف المملوء بالباعة المتجولين الذين تجاهلونى واهتموا بمواشيهم وأطفالهم وأجهزتهم القديمة ، نظرت حولى للطرق المفتوحة وقرأت على لافتة عالية : " مرحبًا بكم في حى الجامعة ".

قمت متجهًا للسير بداخله علّنى أعثر على الماضي ، قطعت مسافاتٍ طويلة متأملا همس المارة وضجيج المحلات ، ولم أبالِ بالظلام داخل المقاهى التى يصرخ روادها قائلين : " شيش بِك ، دش " ، اقتربت من إحدى النساء التى تمتلئ أقفاصها بالخبز وسلمتها عملة فضية مركونة فى جيبى وأخذت رغيفًا وقضمته مترجلاً فى صمت.

قابلنى جسر متهالك تمتلئ أرصفته بآلاف الباعة ويمر فوق مصرف يمتلئ بالقاذورات فاستكملت سيرى داخلا وسط الجموع التى يعج بها الرصيف مندمجًا فى ضجيجهم.

شاهدت نساء ورجالًا وصبية يتشاجرون بالسيوف والبنادق على الزبائن والأماكن شبه الخاوية المملوءة بأجولة وبقايا عدد وأجهزة ، غير عابئين بالجموع التى تحاول العبور للجانب الآخر.

عند نهايته قابلني عدد من الفتيان العرايا وطلبوا بطاقتي ونظروا لبعضهم في استغراب واقترب أحدهم بطبنجته من رأسي وسألني : " عارف مختار؟ " كدت أنطق بالحقيقة لكن لساني اتعظ من الماضي ، فأجبت بثقة : " لا " ، فأمر أصغرهم بمروري سالمًا ، ولولا توفيق الله لنظروا في حقيبتى وعرفوا الحقيقة.

أخذتني أقدامي إلى حوارٍ مجاورة مملوءة بالصبية المتصارعين حول الأجهزة القديمة ، ويلتف حولهم مئات المشترين غير عابئين بالدم الذى يسيل من وجوههم ، روجت فتيات عاريات بضاعتهم التى تحوى قطع غيار لكل شيء.

فجأة امتلأ السوق بوجوه صبايا وشباب مشقوقى الأنوف ، رافعين السواطيرَ فى أياديهم مهددين الجميعَ ، وضعوا البضاعة المكومة فوق سيارات نصف نقل متهالكة وانطلقوا عائدين من الجسر إلى الحي الذي غادرته منذ ساعات ، سمعت أحدهم يصرخ مبتهجًا : " مفيش خردة تاني يا معلم ".

عندما اشتدت العركة بين المجموعة التى هاجمت السوق والباعة الذين خذلهم حراس الجسر ، فرت قدمي وسط المنازل الممتلئة بمحلات تصوير الأوراق ومقاهٍ ومطاعم غارقة فى رائحة الخضر المطبوخة ، ورغم انشغال البعض في عمله لكن أغلبهم بدأ يتجهز للفرار.

تفرست بيأس وجوه البلطجية الذين دخلوا الحارة من الاتجاهين ووجدتُ نفسي محاصرًا بين السيوف والطبنجات التى يحملها الفتيان ، ضغطتُ على حقيبتى لأتأكد من وجود الرواية ونظرت للسماء لتحمينى من شرهم ، ووقعت عينى على امرأة شبه عارية تقف في البلكونة وتنظر إلى الشارع صارخة بوجه جارتها لتتابع تفاصيل العركة التي يتساقط فيها الشباب والفتيات دون اعتداد بدمائهم التي أغرقت الحارة.

دخلت بسرعة مدخل منزلها ، وطلعت السلالم حتى السطوح ، وفوجئت بجمع من الفتيات شبه العرايا يتناولن الطعام ، رحبن بوجودي ، وسألونى عن طلبي ، وقامت امرأة ممتلئة من وسطهن وسحبتنى من يدي قائلة : " رجل شايب ومش عارف الفرق بين الخوخ والتفاح " ، وضعت يديها على عضوي الذكري وسألتني عن اسمه فضحكت النسوة بخلاعة ، وسألتني أخرى

بعيون فاجرة : " معاك فلوس يا حاج؟ " فلم أرد ، وأجابت المرأة الممتلئة : " مش مهم حسابه مفتوح يا بنات ".

سرتُ وراءها محتضنا حقيبتي إلى حجرة شبه مفتوحة على السماء ، أغلقتْ شيش البلكونة ووضعتْ حقيبتي على الأرض هامسة فى أذنى : " متخافش هاعلمك كل حاجة " ، أخلعتني نظارتى وقميصي وملَست على جسدي وتسحبتْ يداها لتفك أزرار بنطلوني ودعكت بين أفخاذي ، ونظرت في عيوني لتستجلب الرغبة التي تيبست في عروقى.

لم تستجب مشاعري إلى فجر عيونها وملمس كفيها ، فرمتنى على السرير وأمسكت عضوي برفق ولحسته بلسانها كأنها تستعطفه ، وفى لحظة تعرفها دخلت بنهديها العاريين في جسدي سابحة فى عرقى ، رمتني على المرتبة وفوجئتُ مثلها بانتصابه وتركتها تفعل ما تفعله دائمًا مع زبائنها.

تأوهت وشهقت وتحدثت في خلاعة بصوت دافئ ، شخرت وزامت وفعصت أكتافى وعضتنى في رقبتى بأسنانها وامتصتْ عذابات السنين خلال الساعات التى قضتها بين أحضانى.

وعاد المشهد القاسي الذي اختفى إلى أعماقي كأن أحداثه تجرى الآن ، مشهد زواج أمي وهجرانها بسبب خيانتها لوالدى .

ليلتها قررت السفر رغم اني كنت اشتاق إلى رؤية وجهها حتى ولو من بعيد، حزمت أمتعتي وتسحبتُ كاللص بجوار سور منزلنا ونظرت من شباك حجرتها المغلق ، ووجدتها في حضن عمي تتأوه من اللذة ، لمحت عيونها الغارقة في النعيم ، ولم أتحمل كثيرًا رحيق سعادتها المنبعث من دفء جسادها ، وغادرت مقرراً ألا أريها وجهي .

حينما رأيت ملامح وجهها تحررت أعماقى وتذكرت ساخرًا كل ما جرى في حياتي ، كأن طوفانًا دهس الماضي والحاضر ، حينها تجرأت روحى ودخلت مخبأ مشاعري لهدم أسوار الخوف وانطلقت روحي إلى فضاء جديد مملوء بالشفق.

تذكرتُ أبطال روايتي مجددًا وشاهدت أركان الحي الخربان وحروب العصابات التي نشبت بعد موت " بقدونس" وهروب " مينا".

حينذاك ألقتنى أرضًا وبركت فوقى متأهبة للقذف ، تداخلت الصور مرة أخرى فى أعماقى وكدت لا أعرف هويتى ونسيت تاريخى.

ورأيت أسوار المدينة تتهدم من حولى ، وانهارت القرية وغرقتُ في مياه المطر ، تشققتْ الأرض وتيبستْ جذور الأشجار ، وهرب الفلاحون من حقولهم إلى الأجران بعد اشتعال النار في منازلهم بفعل الرياح العاصفة.

صرخت المرأة فوقى بعيونها اللامعة وقبضت على عروق رقبتى ، فأحسست وكأن بركانًا جديدًا ينفجر بروحي ليزيل الحواجز بين هذه العوالم المخيفة ، وفجأة ظهر في الأفق وجه "مريم" غارقًا في عيون "ملاك" ، ويسيران خلف بركة المخروبة دون اعتداد برصاص العصابات ويشبكان أياديهما ويدخلان بصدورهما المفتوحة حي الرعب غير عابئين بالمصير.

فى تلك اللحظة أحسست بروحي ضعيفة وتمكنت المرأة التي تحدت بلادة مشاعرى من القذف معى فى اللحظة نفسها التى صرخنا فيها : " آه ، آه " ، ارتمت بجواري على السرير وشردت بعيونها الناعسة كأنها عاشقة تقول برقة : " عارفاك " ، فنطق لساني مستغربا : " أنا مين ؟ " فاستكملت : " الساكن اللى نزل بالشقة اللى أدام أوضتى من سنين طويلة " ، سألتها عن اسمها ، فردت بلوعٍ : " هتتجوزني ولا إيه راجل ؟ " قلت : " من باب المعرفة " ، فأجابت بصوت ملائكى : " صفية " ، وحين سألتها عن عملها قهقهت وشخرت وانتفض جسدها كأن شيطانًا مس جسدها الممتلئ قائلة بلغة غريبة : " أنا سيدة بيت المتعة الذى تنام الآن في رحابه ، أبهج المريدين وأزيل الألم عن أجسادهم التعيسة ياحمار".

عادت لطبيعتها قائلة بخبث : " صاحبك اللى كان عايش معك بالشقة كان زبونًا دائمًا عندى " ، سألتها : " فاكرة اسمه؟ " فردت بسعادة : " على حبيبي ، عمرى ما أنساه " ، واستكملت برضا : " أنا بطلت شغل من زمان ، بس لما شفتك فكرتني بالماضي ".

قلت بأسى : " الحي كان هادئا ومفيش فيه معارك أو بلطجية ، إيه اللى جرى؟ " نظرت بعيونها الخلابة ناحية صدرى الذى يمتلأ بالشعر الأبيض قائلة : " أنت اللي اتغيرت يا شيخ ، كنت مسالمًا وملكش دعوة بحد ، من البيت للقهوة للجامع ، ولا كأنك ملاك عايش وسط شياطين ".

استكملت تحكى عن شخص آخر لم يعد موجودًا قائلة : " كنا بنتفرج عليك أنا والبنات وبنتراهن على وقوعك فى حبالنا الدايبة ، وعمرك ما استجبت ، الكتاب مفارقش ايديك ، وياما ندهت عليك من البلكونة ، كنت بتقفل شباكك لما أضحكلك كأنك شفت عفريت ".

بحثت بعيونى عن غرفتى ولم أعثر على آثارها فذكرت حكاية صاحبة البيت التي رافقت "موزة" الفكهانى عاشق نهودها الضخمة ، قتلها ابنها الكبير انتقامًا لشرفه وأقام مكان منزلها عمارة كبيرة وأصبح الآن من رجال الحي الكبار.

أعادتنى زقزقة العصافير فى الفضاء إلى وعيى وسمعت أذان الفجر وبدأ النور يسطع في السماء ، ففتحت البلكونة لأستعيد روحى قائلا بصوت مسموع : " مسير الحى يتلاقى ".

تأملت الهدوء الذى حل على الشارع وباعة المحلات الذين يستعدون لفتح أبوابها كأن معارك الأمس قد طواها النسيان ، أخرجت محفظتي وتركت مائة جنيه على الترابيزة ، فاحتضنتني قائلة : " سلملي على أخوك ، وحمد الله على سلامتك ".

" مختار "

أعلن الغجر مقاومتنا وبدأت المعركة ولا أحد يعرف نهايتها ، دعمهم الغيلان الذين يحرسون بركة المخروبة وانضموا إليهم للقضاء علينا وإنهاء سيطرتنا على حي المتعة.

أدت عملياتهم المتكررة باقتحام مخازننا إلى اتفاق المعلمين الكبار وتجار الكيف والدعارة والسلاح والقتل على مواجهة الطوفان.

منذ يومين أصدرنا فرمانا بإنشاء شبكة سرية من فتيات الحي المتعلمات لمعرفة خلايا تنظيم الأشباح وفوضنا دكتور الصيدلية ومساعدته وأبناء "بقدونس" ليراقبوا الشقوق السرية التى يهاجمنا منه نسورهم.

وقررنا تفويض الدكتور "سمبو" بقيادة خلايا السجون بعد تمكن الأعداء من تهريب المساجين وسيطرتهم على بعض الشوارع التي باتت مفتوحة كساحة حرب.

ورغم اتخاذ كل الاحتياطات تمكنت صقورهم من قتل زعيم البصاصين ، وهدموا السور والبوابات التى مكنتنا من السيطرة على الحي بأقل الخسائر ، دعتنا حادثة الأمس للاجتماع بعد وصول معلومات تؤكد سيطرتهم على طريق الطيور الجارحة الذي يربطنا بعوالم الجريمة ويتم من خلاله تهريب وبيع كل شيء ؛ النساء والرضع والأعضاء البشرية والمخدرات والسلاح.

لم يلتفت رؤساء العصابات لمعنى خيانة "سوسو" الكوافيرة مع تمرجي المستشفى واللذين عاشا بيننا مدعين عشقهما لبعضهما البعض ، لكن رائحة التمرجي التي تفوح بروائح مفضوحة لا يمكن أن تخرج إلا من مخابئ الغجر والتي أدت إلى اكتشاف خيانته ، لم ينطق لسانه أو يعترف بالحقيقة رغم أننا وضعنا عشيقته على خازوق وسط الميدان فنطق زورًا بمعلومات مغلوطة عن خلاياهم محاولًا نجدة رفيقته من التعذيب.

استدعى القس قائد المجنزرة لتدهس الآلة جثتها الضخمة ، ساخرًا من التمرجي الذي يعشق نهودها الرخوة ، انشغلنا بتوصيل فُجْرنا للخونة ولم نهتم بآثار الجريمة التى أكدت اختراقهم لمواقعنا واقترابهم من أوكارنا.

تحدث "زكي" بحسرة وهو يشاهد عظام ودماء جثتها المدهوسة قائلاً بصوت عالٍ : " ملعون أبوها حياة " ، عرفنا أنها كانت على علاقة بـ"ثريا" التي تعيش بجهنم ، فآثرنا السلامة وبلغنا ممثلي جهنم أن يتصلوا بأقرانهم ليقبضوا على الداعرة التي تعيش وسطهم وتدعّم خلاياهم.

عندما علمنا بانضمام أشباح بركة المخروبة إلى صفوفهم تجمعنا برئاسة "الأمين زكي" وحضر القس والشيخ و"ألطاف" عشيقتي التي تولت إدارة بيت النساء الفاجرات بعد هروب "ثريا" ، وشاركنا رؤساء حارة الأوباش ومعلمي الخرابة وممثلين لحي جهنم الذين استشعروا مثلنا الخطر.

لم نشعر بالخوف إلا بعد مهاجمتهم السجن وإطلاق سراح "سفروت" و"لولا" و"جهاد" ليساعدوهم فى المعارك التي لم يشهد الحي مثيلها رغم تاريخه العارم في الإجرام.

في بداية الاجتماع تنحنح "زكي" قائلا : " الأيام الأخيرة أثبتت أننا نحارب الجنون الزرق ، يتصورون أنفسهم آلهة هيطهروا الشوارع من أمثالنا ، تفجيرات البار وبيت بقدونس وحرق مقراتنا وسرقة أسلحتنا وقتل شبابنا تؤكد جنونهم وفقد الثقة بين رجالنا " ، انبرى "ميهوب" واصفًا قائدهم قائلا : " عديم الشرف مبيظهرش كرجل ليواجهونا ، يغدر كالثعالب بشبابنا ، ومش عارفين امتى ضربته الجاية ".

تحدث " زايد" وسمعناه بإنصات ، اندهش من وصفهم بالغدارين قائلاً : " مفيش عواطف في الحرب ، كل شيء مباح ، عارفين أن كلمة السر هى مينا ، فالأوراق التي وزعها شبابهم على أهل الحي خلت الناس تتعاطف معهم ، متنسوش دعوتهم لمقاومة سلطاننا وبحثهم عن المسكين اللى غدرنا بروحه على حد تعبيرهم ، لو عرفنا مين هم أنصار المرتد اللى بيدفعوا حياتهم ثمن لتحريره هنكسب المعركة ".

الجميع نظر ناحيتي ليطمئن على حياة الرجل الذي أحرسه ، حينما كان يرغب القس أو الشيخ في رؤيته لمعرفة مكنون ضميره واستجوابه عن ماهية الحياة وطبيعة الخالق ، أنزوى بعيدًا لأننى غير مهتم بمعنى الموت أو القدر ، كنت آخذهم إلى الخن المخفي ببطن الأرض معصوبي الأعين في سيارتي الميري التي تركها المأمور قبل هروبه ليجلسوا بالساعات فى السرداب ، محاولين فهم سبب ارتداده ثم أعود بهم سالمين إلى أوكراهم.

أجلس بينهم أسمع أسئلتهم حول الملائكة والشياطين وأبينا آدم وأمنا حواء ، وأستغرب علاقة ذلك بصراعنا وأظل صامتًا طوال المقابلة حتى يحصلوا على إجاباته التى تزيدهم حيرة ، ويعجزهم غموضه عن اتخاذ قرار باغتياله كأن فى موته انتهاءً للحياة.

قبل حضوري الاجتماع مررت على صبياني الذين يحرسون الأسوار وانتابني إحساس باليأس ، فالغجر يزحفون كل يوم ويستعيدون الحوارى والأخنان وينشرون رسالتهم دون خوف أو رهبة.

يحكي أتباعنا عن فتى يقودهم لايعرفون هويته ويملأ قلوبهم بالعزيمة ويعيد تدريب شبابنا المنضم لتنظيمهم على السلاح رافضًا تعاطيهم المخدرات أو معاشرة الصبايا ، المعلومات تؤكد استبسالهم ورغبتهم في الموت الذى فضلوه عن حياتنا.

ينظفون الأماكن التي بحوزتهم ويرممون منازلها ويكنسون الحوارى معتقدين أنهم سينظفون الدنيا برسالتهم الجديدة.

حلل الجميع في الاجتماع خيبتنا المستمرة ، أكدوا تنظيم حملة قوية للدخول بكامل قوتنا لمواجهتهم عند بركة المخروبة حتى يمكننا استعادة المناطق المفقودة وقتل الغيلان الذين ساعدوهم فى غارتهم.

حين سمعنا طلقات الرصاص تخترق فضاء مجلسنا ، أمرنا "زكى" بالاستمرار في الاجتماع وفر إلى الخارج لمراقبة الأحداث ، أطلق من طبنجته رصاصة واحدة وخرج ولم يعد ، وحين ذلك دكت المجنزرات واللوادر الحوائط وغرست سكاكينها في لحومنا ، دخلت " ألطاف" مرعوبة في حضني أمام ابنها "سعد" الذى شاركنا لحظة الهزيمة ، لم أحس بأية شهوة أو رغبة ناحيتها ، ركلتها بقدمى باحثًا عن منفذ لروحى من الدمار.

بعد انتهاء المجنزرات من هدم الوكر سحبوا جثثنا عرايا إلى الميدان ، الجميع رحل وفارق الحياة باستثناء " سعد" الذى دخل اجتماعنا على غير رغبتنا ومع ذلك نَجَى بروحه من الموت.

اندهشت من حياتى المملوءة بالمجازر ، ومع ذلك عشت حتى الآن غير عابئ بالموت ، تذكرت رحلتي في الشوارع والنواصي وتخشيبات الأقسام ، والرجال الذين عاشروني والنساء اللائي ضاجعتهن ، استعدت للحظة صورهم جميعا كأنهم يودعونني.

عاد لروحى وجه أبى وهو يركب عربة نصف نقل هاربًا من أمى ، جريت وراءه وأمسكت بملابسه وبكيت ليأخذني معه ، كنت أرتدى جلبابًا أبيض على اللحم ، ورغم صغر سنى ركلني بقدمه قائلاً : " أنا مش أبوك ، اسأل أمك الهربانة يابن الحرام أنت ابن مين؟ " كنت أتمنى أن

يأخذني لزيارة أهله في القرية لأركب الحمارة وأذهب إلى الحقل وأتدفأ على ركية النار التي يتجمعون حولها ، ضاع العمر ولم يتحقق الحلم ونسيت مكان القرية وملامح الرجل الذي كنت أفتخر بأبوته يومًا ما.

جرُّنا شباب الغجر حتى الساحة الواسعة التي تجاور مقهى "بقدونس" القديم وربطونا في الأعمدة المتهالكة ، وشاهدت "لولا" و"جهاد" تقتربان من الفتاة البكر التي يحكى عنها الحى لتباركا بوجهها وتحتضنانها باكيتين ، سمعت أوامرها بعدم قتلنا ، وانبرى الفتى الذى يلازمها قائلاً : " لعل وجودهم أحياء يكون عظة لمستقبل الحى الجديد ".

اقترب مني كالصقر ونظر في عيني وسألني كشيطان : " فين مينا يا بلطجى؟ " فرددت ببرود : " معرفش ".

فى تلك اللحظة رأيت "سمبو" دكتور المصحة يدخل وسطهم ويعانقهم ويعلن مكان السرداب المخفى تحت جدران المستشفى ، تركوني مع " سعد" مقيدين فى سلاسلنا وجروا وراء الدكتور الملعون الذي خدعنا كل هذا العمر.

تذكرت ليلتي الأخيرة فى جهنم ، فحينما زرت "ثريا" التى عشقتها ورفضت معاشرتى قائلة بلوع كأنها تعايرني : " راحت عليك يا مختار " ، يومها طالبتنى بالاتصال بالدكتور "سمبو" علّني أجد العلاج ، الآن تصلنى رسالتها وهي تقهقه ساخرة : " مفيش مكان فوق الأرض للضعفاء يا بلطجي".

" ولادة "

خرجتُ من شقة المرأة منتشيًا بصفاء ذهنى وتحسستُ حقيبتى مطمئنًا على روايتى وسرت فى الحارة مفرود الصدر كالبطل المنتصر.

جلست على المقهى المقابل للجامعة ، ورحب بوجودى بائع الفول ، اقترب منى واحتضننى قائلاً : " إيه الغيبة الطويلة دى ، كفارة يا أستاذ " ، سألت نفسي إن كان يحمل هو الآخر قصة ثأر مثل "سويلم" بن "مخيمر".

أعادتني روائح الفتيات ووجوههن النضرة إلى براءة الحياة وبكارتها ، استعدت نفسي وقررت النزول بأحد فنادق المدينة حتى الانتهاء من القصة التي ترفض معظم شخصياتها الاستسلام.

عند مدخل الشارع المقابل للجامعة ، صعدتُ سلالم إحدى العمارات المعلق أسفلها لافتة كبيرة مكتوبًا عليها " فندق الطلبة" ، استقبلني رجل متجهم الوجه وسألني عن بطاقتي واسمي ، سلمته هويتى فسجل كل شيء برتابة وأعطاني مفتاحًا وأشار على حجرتي ، قائلاً كأنه ينادى على بضاعته الرخيصة : " الحمام مشترك ومفيش فطور ولا شاي " ، لم أرد ودخلت الحجرة مملوءًا بالسعادة لانفرادي بنفسى بعد سنوات الغربة الطويلة.

يمكنني النوم مطمئنا خالي البال ، وعند شروق الشمس سأبدأ عملي ، وضعت رأسي على المخدة المملوءة بالصنن والعرق ونمت .

ورأيت أطباء مستشفى حي الصمت ورفقاء " حياة " والشباب مجهولو الهوية الذين خطفونى من المطار يدخلون ويسحبوني من سريرى .

أنزلوني في الشارع بعد أن سلموا لحارس الفندق ظرفًا مملوءًا بالنقود ، وحملوني في سيارتهم وساروا حتى منتجع كبير مملوء بقاعات الأفراح وقالت حياة مبتهجة : " ستوقع وثيقة زواجي الليلة ".

أحضروا أهلي من البلدة وشاهدت إخوتي وعمي فرحين بعودتي وعرسى ، حاولت توضيح موقفي ، لكن الجميع انشغل بالترحيب بالضيوف الذين حضروا لمباركة الزيجة.

استأذنتهم لأدخل الحمام ، وعندما أغلقت بابه ونظرت من شباكه شاهدت البراح والسماء والأرض الممتلئة بالثلوج ، فهربت غير عابئ بالفضيحة ، ورغم أني لم أركب في حياتي دراجة ، لكني وجدت نفسي أقود موتوسيكلا ضخمًا ، وأبتعد عن جمعهم مسافات طويلة ، لاحقوني كالمجانين راكبين تكاكتك مكشوفة ورافعين بأياديهم بنادق آلية آملين فى اصطيادى.

وعندما أطلقوا ناحيتي الرصاص الفارش للضوء نزلت بالموتوسيكل وسط مياه الترعة التي تجاور الطريق ، فقفزوا مفزوعين من التكاتك وفتشوا في الهيش عن حذائي ، وانطلق آخرون باحثين عن طيفي وسط الأشجار ، وحينما فشلوا في إيجاد جثتي أطلقوا الرصاص بالترعة وفي البراح المحيط علهم يعثرون على طيفي وسمعت أحدهم يصرخ قائلاً : " سيهرب المجرم قبل أن نعرف مصير أبطاله ".

سبحتُ غارقًا تحت المياه مع التيار حتى وصلت إلى هويس كبير وصعدت على أحجاره ورأيتهم يسيرون مبتعدين بالطريق المعاكس ، شجعني ذلك على الصعود إلى رصيف الأسفلت وأشرت إلى أول سيارة وركبت مبتعدًا عن جنونهم ودخلت مدينة أخرى أكثر غرابة.

هرب إخوتي وعمي من نفس طريقي وأشعلوا النار فى الظلام باحثين عن روحي ورأيتهم يقتربون مني كأني أحمل في قلبي رائحة ترشدهم إلى مكاني.

حين انطلق أذان الفجر صحوت على صراخ امرأة تمسك برقبة رجل يرفض دفع أجرتها ، لطخت وجهه دون حياء بتواطؤ من حارس الفندق قائلة بصوت فاجر : " اتفقت على ساعة واحدة وميهمنيش إن كنت جبت ولا مجبتش ، هقطع رقبتك لو مدفعتش يا خول " ، وحين فتحا باب حجرتي ليشهداني على الواقعة ، نظرت صامتًا كغريب حضر من عالم آخر ، تجاهلتهما حاملاً حقيبتي التي كنت أنام بحضنها وقررت مغادرة المكان.

ترجلتُ وسط الشوارع سعيدًا بضوء النهار المنبثق في السماء ، كأنه يبشر بعالم جديد وقررت التوجه للمحطة والعودة للقرية علّني أصل قبل فوات الأوان ، وعندما نزلت من الباص فتحت حافظتي وقرأت العنوان لأتأكد من هويتي.

وفي الطريق الي القرية شاهدت بائعي اللبن المبتهجين بأسطالهم الفضية المحمولة على دراجاتهم وينادون على زبائنهم بصوت عالٍ كأنهم يغنون لشروق الشمس ، نظروا إلى وجهي مبتسمين قائلين : " الحليب الصابح ... قشطة ... عايز لبن يا أستاذ " ، بادلتهم الابتسامة وأستكملت طريقي.

جلست النساء الريفيات على الأرصفة يبعن المش والفطير ويصبّحن على الغادى والرائح ، مررت على أحد الجسور الممتلئ بالفتيان المحتضنين فؤوسهم وكوريكهم وينتظرون الرزق من الوهاب آملين فى يوم عمل ويومية مجزية ، اقترب مني بعضهم قائلاً : " أي خدمة يا باشا " ، ابتسمت في وجوههم قائلا : " الرزق على الله ".

وصلت إلى مدخل القرية وشاهدت المدافن فتذكرت ضحكة أمى وقلت لنفسي : " ما أقسى أن نعيش سنوات دون تذكر أحبابنا؟ "

نزلت في المحطة الواسعة واندهشت من المباني الخرسانية التي تحيط بالميدان الجديد المملوء بالمقاهي واللافتات المعلقة على جوانبه ، معلنة عن عيادات لأطباء ومكاتب لمحامين ومحلات لملابس وكوافيرات وصيدليات وبائعى فاكهة وأجهزة.

قادتني قدمي إلى منزل أبى المحاط بحقله الوحيد الباقي من زراعات القرية ، اقتربت من حمارة وحيدة مربوطة بحبل ضعيف وتنام على نفسها ، وقفت حذرة ورمقتنى بعيونها مبحلقة في حقيبتى وفردت أذنيها تجاهي وصرخت بصوتها : " حاحا ... حاحا " .

سمعت صوت باب المنزل الذي مازال على حاله ينفتح ليخرج منه رجل كهل باحثًا وسط الظلام عن الضيف الذي أعلنت الحمارة حضوره.

اقترب من وجهى ودون أن ينطق أخذني بأحضانه ولم يكف عن البكاء ، كأنه يغسل ذنوبه أو يطهر حياته التي وهبها لحماية أسرة أبي الذي مات وتركني وحيدًا.

لم يتحرك من مكانه واستمر في بكائه ، قائلاً وهو يأخذ بيدي : " كل شيء موجود كما هو ؛ الأرض ، والمواشي والبيت وإخوتك ، لم يغب عنا إلا أخوى وزوجته " ، واستكمل بكاءه كأنه ينتظر حضورى قائلا : " دلوقت ممكن أموت مرتاح البال " ، وقبل سؤاله عن سلامة إخوتي ، ارتمى بأحضانى وشهق مناديا باسم أبي قائلا : " سامحني يا زين ".

" سوسته "

عندما غاب الناضورجية الذين أرسلتهم إلى العصابة ليطمئنونى ، لعب الفأر فى عبي ، وقررت إبلاغ الرسالة لسادة جهنم ليأخذوا حذرهم ، فى تلك اللحظة شاهدت أتباعي فوق الجسر يحملون جثة شاب مشوه ويلقونه أمامى.

وضعت قدمي علي رقبته قائلا : " خير " ، ردوا بحذر : " شفناه بيقرب من الجسر وعايز يهرب " ، عرفته رغم الدم الذى ملأ وجهه ، وسألتهم : " مش عارفين وكيل النيابة اللى أصدر عشرات المرات قراراتٍ بحبسي؟ " وداست أقدامى بقوة على خصيتيه وصرختُ فى وجهه : " انطق يا كلب ".

تحشرج صوته ورد كميت قائلا : " الغجر استولوا على الحى وحرقوا أوكار المغاوير والغيلان وردموا بركة المخروبة وجهزوا عدتهم لمهاجمة جهنم ".

أطلقتُ رصاصة من طبنجتي في فمه وألقيت بجثته فى المصرف ، وطلبت من رفاقي أن يبلغوا الناضورجية بالأخبار التعيسة ، بعد دقائق غطى سماء الجسر نار المدافع ، كأننا فى يوم الحشر.

أحاطنا الأشباح من كل اتجاه، ورأينا فتيانا يطيرون في الهواء ويلقون بالقنابل علي أركان الجسر ليهدموه ، اقتربت لوادر ومعدات لم أر مثلها فى حياتي حاملة أطنان التراب والدبش لردم المصرف دون أن يهابوا رصاصنا كأنهم مخاوون للجن.

تجمعت لوادرهم حول بركة المخروبة لتهيل الدقشوم والحجارة على مئات الجثث والعفاريت وتدفن ماضيًا مملوءًا بالغل ، وانطلقت مجنزراتهم صوب جهنم لتواجه الشياطين الذين روّعوا الدنيا فى الماضى.

أثناء ذهولي قبض علي رقبتي "سفروت" الملعون غير مستجيب لتوسلاتى ، وطعنني في إحدي عيوني بسكينته المسمومة ، وتركني وسط الظلام أندب حالي.

انطلقتُ أمام جموع الغجر صوب جهنم لإبلاغهم بالهجوم ، فوجدتهم علي علم بالأخبار التعيسة ، تجهزوا بمدافعهم المتأهبة للانطلاق ، أشعلوا النار في بيت المتعة الذى عاشت فيه "ثريا" ووثقوا أيادى النساء اللاتى تعاطفن مع المومس وألقوهن وسط الطريق المؤدي إلى الميدان كى تدهسهن مجنزرات الغجر حال دخولها للوكر.

استقبلني سيد جهنم مقاطعا إخباريتي قائلا : " المعلومات كلها عندنا " ، أصدر أوامره ليبلغ أتباعه أسود الأحياء التي تنتظر إبادة الكفرة.

اطمأن علي وصول الدعم من أقرانه المختفين في أحياء وبرك الشر ، تفقد مخازن الذخيرة والقنابل، ونظر إلى وجهي بثقة قائلاً : " متخافش يا سوستة المعركة محسومة لصالحنا ".

تركني لأعتلي أسطح المنازل المحاطة بالعشش ، وشاهدت رجاله يحملون الذخيرة مستعدين للموت فداءً لجهنم.

قاوموا بمدافع قوية وقنابل حديثة وتبادلوا إطلاق النار مع المهاجمين لمدة ثلاثه أيام، اعتمد الغجر على طريقة قديمة لمحاصرتنا ، استدرجونا حتى نفدت ذخيرتنا وطعامنا ، لدرجة أن سيد جهنم أمر بذبح بعض الفتيات والرضع لتناول لحومهما ، لكن المهاويس ألقوا بقنابلهم المصنوعة من براز الخيل وألسنة النساء الشريرات المخلوطة بالكبريت وأطلقوها بمداخل الطرق كي يمنعوا هروب رجال جهنم من الجحيم.

ورغم البرشام والبودرة التي تناولها مقاتلونا ليظلوا دون نوم أكثر من أربعة أيام متواصلة ، لكن المجرمين أنصار المرتد أطلقوا في اليوم الخامس قنابل الغاز المحشوة بدخان وغبار المفقودين وقتلى معاركهم ، وحين تشمم شبابنا روائح الموتى نامت أعينهم وتركوا تحصيانهم وأسلحتهم وغابوا عن الوعى.

لم أتأثر بتلك الروائح نتيجة تعرضى آلاف المرات لروائح أكثر نتانة من جيف الحيوانات النافقة ، إذ يكفينى العيش فى تخشيبات الأقسام وبجوار بركة المخروبة لتتجمد مشاعرى وحواس الشم والإحساس بروحى.

حين وقع مقاتلونا على الأرض مغشيًا عليهم دخلوا آمنين إلى مخابئ جهنم وفكوا قيود "ثريا" والنساء اللائى تعاطفن معها وأغاثوهن بمياه الورد والريحان وطببن جروحهن كملائكة.

شاهدت "زكي" بعينى الواحدة يحتضن "ثريا" ويفك قيودها ، تبادل مع الفتيان والفتيات التهانى والقبل ، وانهمك الجميع في تقييد مقاتلينا وتحميلهم في مقطورات تجرها مجنزرات ضخمة ، وحين تأكدوا من خلو الأعشاش والمباني من الشياطين ألقوا بمادة سوداء قاتلة على الخيام وأشعلوا النار في مأوانا وغادروا منتصرين.

جريت مسرعًا من اللهيب مختفيًا عن أعينهم ، وشاهد أحدهم فراري فحاصرني وتأهب لقتلي ، وقبل أن يفجر رأسي ، أمره "زكي" بالتوقف وإطلاق سراحي علني أكون عبرة للأشرار.

جلست على الربوة التي تعلو الأسوار المحترقة وسألت نفسي عن الجرائم التي قمت بارتكابها طوال حياتي ، وكأن بركانًا من القاذورات انفجر في روحي ، ارتميت على الأرض محاولا النجاة من ذاكرتي التي غرقت في بحر السواد ، تذكرت أمي التي ماتت بجواري محسورة على قدرها السيئ ، عاشروها بنهم وهتكوا عرضها أمامي ، وعندما كبرت أطلقوا عليَّ "سوستة" لتذكري بوسطها الرقاص بأفراحهم وليالي العشق في حجرتنا الصغيرة.

حتى "زكي" الذي يلعب الآن دوره القذر ويساعد الغجر على نشر رسالتهم ، لم يرأف بحالي ، أخذني من الإصلاحية الملحقة بالكنيسة ، وزرعني وسط التخشيبة لأبلغه كل يوم عما يجري بداخلها ، وعندما حرضني على قتل زعيمهم الذي ينكح المحبوسين رضاء وجبرًا ونفذت أوامره ، كافأني وقيد الحادثة ضد آخرين وعينني رئيسًا لبيت الإجرام الذي يؤهل المسجلين.

وعندما اشتعلت الحرب وهدموا القسم وهرب الضباط لم يكن أمامي سوى جهنم الذي أمر سيدهم بتكريمي وفوضني لأظل حارسًا للجسر الذي يربطهم بحي الفواحش.

تركوني جميعًا أتغذى على شرورهم ولم يعطفوا على روحي ، ملأوا أعماقي بجرائمهم حتى نزعوا الخير منها ، حتى "لولا" لم تتوقف عن خداعي لصالح "ثريا" التي تدَّعي الخير الآن واستخدمتني لأبلغها عما يجري في الشوارع لإخفاء أتباعها عن عيون المتربصين مقابل فعص نهودها.

اليوم يرفضون قتلي ليس بدعوى الشفقة ، ولكن ليتركوني عبرة لأعيش الباقي من عمري بعين واحدة.

الألم يمزق روحي وأنا أبتعد عن النار التي تحرق خيام جهنم ويكمن فيه سر حياتي ، سرت على بقايا العظام حتى الجسر المتهدم ونظرت إلى المصرف وآثار بركة المخروبة التي ردموها واشتاقت روحي لرائحة الموتى.

كدت أخرج مطواتي وأطعن نفسي وأرتاح من شماتتهم ، لكني قررت الانتظار لأصنع مصيري ، نعم لن ينتصروا حتى النهاية ، أيعتقدون أن فتاهم العائد نبيٌّ أرسله الله ليقضي على الحقد والكره؟ أيمكن لـ"مريم و"تومة" اللتين تغذيا على روائح الشر في أحيائنا أن يقودا الناس إلى

النور؟ ومن تكون "جهاد" أو "لولا" أو "سفروت" سوى براغيث ترغب في لدغ البشر وامتصاص أموالهم وخيرهم ... نعم هم الخاسرون لأن ما شاهدته في حياتي يؤكد ذلك ، ليس أمامهم إلا قتلنا جميعا فكل البشر سفلة وأشرار.

سأنتظر وأدبر أمري لقتل فتاهم الذي لا يعرف أحد أباه ، يقولون إنه ابن "مينا" الذي هرب إلى قريته وعاش وسط الزرع ينتج المحاصيل ، أيمكن لصبي جاء من رحم "ألطاف" العاهرة الطماعة أن يقود وينتصر محققًا أحلامهم بالسلام؟ ولماذا لم يكتف بالعيش هانئًا وسط أهله وترك أولاد الشوارع والمقطوعين أمثالي في حالهم؟

أمن طينة أخرى تم خلقه كي يضحي بروحه؟ وأية رسالة يحملها؟ وماذا يعرف عن الشر الذي زرعه الجميع في قلبي؟ ولماذا آمن الغجر المخبولون بنبوءته؟

ساروا وراءه كالقطيع دون مصلحة ليحاربوا ويقتلوا من أجل البحث عن مرتد يبغون تحريره ويحرقون أرواحنا البائسة ، نسوا حمايتي لمؤخرته في تخشيبة القسم ، يوم أوصاني عليه "بقدونس" حالفًا بقطع رقبتي إذا مسه الجن ، كان يمكنني قتله وإراحة الجميع من كفره ، نسوا كل ذلك وتجمعوا ليشعلوا النار في مأوانا ، أي عدل في هذه الدنيا التي تغيرت موازينها؟ أيجب أن نكفر بالرب الواحد القهار حتى يقوم الناس من نومهم ويتسلحوا لاستعادة حياتهم؟ أما كان يكفي أن يأخذوا رهينتهم ويتركونا نعيش كما خلقنا الله؟

وما الذي غيَّر عقيدة هؤلاء التعساء ليخرجوا عن بكرة أبيهم خلف معتوه كفر بالواحد القهار؟ أيتصورون أنفسهم أوصياء ودعاه لتغيير نفوسنا؟ أيقرأون ضمائرنا ليصنفونا كمرتزقة وأشرار ويحاربونا بغية الشعور بالرضا ؟

لولا قوة رجالهم وتفانيهم لأعلنت إيماني بخالق الشر ، وشكرته على حفظه لحياتي ، لن أبقى معهم يومًا آخر ، سأهجرهم إلى الأحياء الأخرى ، وأبني إمبراطوريتي الجديدة لأعيد عقولهم إلى مكانها الطبيعي ، وألقنهم الدرس كي يدفعوا ثمن أحلامهم ، نعم حين يشتد عودي ويؤمن بعدالة قضيتي عشرات الأنصار سأعود لأبشِّر مثلهم برسالتنا وأعمي عيونهم جميعًا.

" مدافن "

ثلاثون عامًا مرت ولا تزال رائحة طفولتى تنضح في المنزل ، تركوا أثاث "حياة" ومكتبي وسريري وبعض أوراقي وكتبي وكل شيء ، كل شيء كما قال الرجل الذي بكى ونادى قبل موته باسم والدى كى يغفر خطيئته.

أكان ينتظرنى ليعتذر لأخيه عن نكران ذكراه وموته من أجل الدفاع عن شرفهم وسط القرية ، وحين نطق لسانه " سامحنى يا زين " دفع ما عليه ورحل؟!

المشهد الأخير ذكره بالخطيئة التي لم ينسها طوال رحلته ، وظل يبحث بشغف عن مبرر لتجاوزها ، وعند اعترافه خرجت روحه إلى بارئها غير عابئة بالحاضر أو رحلة شقاءه الطويلة.

تجاهل السؤال عن حالي أو سبب غيبتي الطويلة ، ونظر في عيوني ليُحمّلني الأمانة ، وعادت إلى وجدانى صورة أبى وهو يرفعنى في الهواء ويضحك كأنه ملاك.

نعم كان والدى فخر الرجال ومات برصاصات الغدر أثناء دفاعه عن بقرته التي حاول اللصوص سرقتها ، حملوها داخل سيارتهم المكشوفة بعد أن نأبوا الزريبة ، فوقف كالأسد مانعًا مرورهم ، فأطلقوا نيرانهم وهربوا ، اهتم جيرانه بمطاردة القتلة وفك قيود البقرة وتنزيلها من السيارة وتركوا فى روحي جرحًا لم يلتئم.

بكيت على وجهه والدم يملأ ملابسي ، وعددت أمي ورفعت جدتي التراب فوق رأسها ، معاتبة رب الكون على اغتيال ابنها ، كأن الله سيسمع أنينها ويعيد ابنها إلى الحياة.

لم يفسر أحد للمكلومة موته فى ريعان شبابه دونًا عن أقرانه الذين عمروا الدنيا وعاشوا حتى أرذل العمر.

ترك للقرية قصة بطولية لفلاح أمسك بسيارة اللصوص التى باعوها ووهبوا ثمنها للجامع ، وأعاد بقرته للزريبة لتحلب الألبان غير عابئ بتسليح اللصوص وغدرهم ، لكن الرصاصة الغادرة استقرت فى قلبه الذي توقف بعد أخذى بأحضانه باكيًا على فراقى.

الآن سيذهب عمى إلى مثواه الأخير ليقابله ، تُرى هل يعاتبه لزواجه من امرأته أم يرفض مقابلته أم يسامحه كعادته أم يشروه علي بره بنا؟

كان ينتظر حضوري لأحمل جثته على كتفي مندهشًا من القسوة والظلم اللذين منيت بهما عائلتنا ، وضعته علي الكرسي ، واتصلت بإخوتي لأبلغهم بعودتي ، رغم صوتي الواضح ، لكنهم لم يصدقوني ، أكدت مرات عديدة وجودي بالمنزل بجوار والدهم المريض ، ولم يمر وقت طويل حتى دخل "علي" وزوجته "خديجة" ، وامتلأ المنزل في لحظات بأبنائهم من الشباب والأطفال.

يا الله كيف هان عليهم أن يتركوني أسير الماضي وانطلقوا في حياتهم دون أن يتذكروا ذكرى أخيهم الذى هاجمته الدنيا وانتقمت منه الحياة؟! لم يكن لي ذنب ولم أحس تجاههم بكره ، لكنها الأيام تدور كالساقية لتهرس مشاعرنا ببرود ولا نشعر بها حتى ينقضي العمر.

احتضنوني مرحبين بعودتي ولم يسألوني عن سبب غيبتي الطويلة ، واندمجوا مع زوجاتهم في تغسيل جثة والدهم وتجهيزها للدفن ، ليدخل القبر متونسًا بروح أمي التي تركتني أسير حاضر لا يعرفني.

رأيت وجوه معزين غريبة وعرفت أنهم يعملون مع مسعود في التجارة ، جاؤوا بسيارات سوداء فخمة ، كأنهم يتبارون في معركة للفخر بأصولهم التي لا يعرفها أحد.

انتهت حكاية الرجل بانتهاء تلاوة ابن الشيخ " بتواه " بقراءة الربع الأخير من سورة البقرة على قبر الرجل ، تذكرنا جميعا أحبابنا وبكينا لفراقهم.

عدنا للمنزل بعد انتهاء مراسم الدفن ، وجلسنا صامتين فترة طويلة ثم تسحبوا وراء بعضهم مودعين أخيهم العائد من رحلته الطويلة ، تركوني وسط ذكرياتي ورحلوا مندهشين من تتابع الأحداث وتلاحقها.

تزوج "علي" وفتح عيادة كبيرة بعمارة العمدة عند موقف الباص ، واندمج مسعود مع تجار الخردة ليصبح واحدًا من كبار المشترين والبائعين للسيارات القديمة والمسروقة.

وعمل "كريم" معلمًا بمدرسة الصنايع وواظب على زيارة منزل والده مع أولاده ليرعي زراعة الأرض وحلب الجاموسة الوحيدة التي ظلت علامة على الفلاحة وسط عالم يموج بالعاطلين والتجار.

سخر الجميع من حال أسرتنا ونكروا حفاظنا على لون الأرض الأخضر ، باعوا أراضيهم للتجار الذين شيدوا عليها الأبراج والعمائر وحولوا القرية إلى مسخ ميت بلا ملامح.

جاءتنى أخبار "مسعود" أثناء زيارات "كريم" المتكررة معددًا نفوذه وسط التجار الجدد الذين ملأوا القرية ، قائلاً برهبة واصفًا جنونه : " يبيع أى شىء ، ولا يخاف أحدًا ، الجميع يعمل لرأيه ألف حساب ، يصاحب رئيس المباحث ويشاركه التجارة ، اشترى عمارتين وأصبح من كبار الملاك ".

يوم أربعين عمى ذبحوا الجاموسة وجلسوا بمنزلى مقررين اقتسام التركة ، لم يكن لى نصيب لأنهم أظهروا ورقة تنازلى ، تصارعوا أمامي لاقتسام الفدان الذى تحيطه المباني من كل الجهات.

وفي النهاية تركوا الحكم لأخيهم الكبير ، لم أكن أفهم في أسعار الأراضى ، لكنى عرفت أن المتر بناصية الأرض بمترين في الدواخل ، ورغم أن الدكتور رغب فى أخذ النواصى ليقيم عليها مستشفي متخصصًا في الأمراض المستعصية ، لكن "مسعود" أصر على أخذها لاحتياجه لمبنى يواكب تجارته المزدهرة وأنشطته المختلفة.

ظلوا ساعاتٍ طويلة يتفاوضون كسماسرة وارتضوا بحكمي قائلين : " أنت أخونا الكبير ومش هنخرج عن طوعك " ، قسمت ناصيتى الأرض بين "علي" و"مسعود" وتركت لـ "كريم" نصف الأرض الداخلية ، عطفوا عليّ مقررين تركى بالمنزل لأستكمل الباقي من عمري داخل جدرانه ، تهامست زوجاتهم بصوت مسموع باعتباري عازبًا ولن يرثني أحد سواهم ، فلا ضرر من ترك المنزل في حوزتي واقتسامه بعد موتي.

نسوا أن الذى شيده هو أبى ، ولولا وفاته لكنت ورثت الأرض والمواشى والمنزل وحدى ، تذكرت صوت جدتى وهى تعاتب أمى التى خافت على تركة والدى وقررت الزواج من عمى حتى لا تضيع الأرض قائلة : " يا وارث مين يورثك ".

خلال شهور كان الفدان الوحيد الذي مازال يزرع بالقرية تم اغتيال نصفه ، وبدأت الأعمدة الخرسانية تظهر في نواصيه التي كتب على أحد مداخلها : " برج مسعود للتجارة والأعمال " ، وفى الناحية المقابلة علق الدكتور لافتة أخرى كبيرة مكتوبًا عليها بخط ضخم : " مستشفى سماح التخصصي " ، كانت لافتة طيبة لتخليد اسم أمى ، لكن أبى "زين" من يتذكره ؟ حتى ذكرى عمي وسيرته وكفاحه راحت أدراج الرياح.

الوحيد الذي قرر ترك نصيبه للزراعة هو كريم ، أحاطه بسور كبير ليحميه من أطفال المبانى وكلابهم ، استمتعت بوجودي وسط المنزل الذى تحيطه الزراعات والأشجار.

كلما خرجت من الباب وجلست بين أحواض الفول وأشجار الليمون التي دأب على تقليمها وريها مع أولاده أحسست بصحة قرار أمي بإنجاب إخوة لي في الحياة.

كان يأتي بعد يوم المدرسة الطويل ليساعدني على تجهيز الطعام وترتيب حجرتي وغسل ملابسي ، ولم يسمح لأحد أن يخدمني في شيبتي ، قائلا : " أنت من ريحة الغالية يا خوي ، لولا مشاكل زوجتي ، لنمت معاك كل ليلة ".

لم أعد أهتم بما يجري في منازلهم أو بالقرية ، كل ما يهمني الآن هو ايجاد نهاية معارك الغجر ، جلست كل صباح حتى حضوره قرب المساء أقرأ كل ما دونته محاولا استرجاع تاريخ الحي والشخصيات باحثًا عن مكان "مينا" وسط الخراب ، رغم التغيير الذى طال حياة الجميع لكن المسكين مازال مختفيا وسط الأنقاض.

فى الليلة الماضية حلمت بطيفه يركب مصعدًا متهالكًا معلقًا على مدخل أحد المنازل المتهدمة ، ويحتضن الأعمدة الحديدية الصدئة للمصعد كى لا يسقط فى بئره الغويط.

كنت ألقى عليه أقفاصًا خشبية ليضعها فى الأرضية المتهالكة ، لكن للأسف لم يتمكن من الصمود ، وفجأة مال المصعد بعيدًا عن المبنى ووقع على الأرض ونظرت من أعلى المبنى على المسكين ولم أعثر عليه.

عندما كنت أنزل على السلالم وحيدًا حزينًا على فقده ، سمعت صوت تليفونى يرن ففتحته وسمعت صوته وحديثه مع أقرانه بالحى ، حاولت معرفة مكانه ، لكن صوته انقطع فجأة.

صحوت من نومى مع انطلاق أذان الفجر ، وبحثت عن تليفونى علنى أجد رقمه وفوجئت بأننى أغلقته كعادتى ، لم تكن هناك أية أرقام مرسلة أو متصلة ، أدى حضوره مرة أخرى لأعماقى إلى همتى واسترداد عزيمتى لاستكمال حكايات الأبرار والأشرار الذين أعادوا إلى حى الغجر الحياة.

" سمبو "

ظلت ذكرى المرتد كابوسًا يطارد أشرار الحي ، وتمكن رغم مطاردته من فض مضاجعهم ، ليس لشيء لكن لأن بروحه سرًا لم يتم اكتشافه.

حينما جاءني بالمصحة لأكشف على قواه العقلية ، نظر إلى عيوني قائلاً بصمت : " مصيبتك في ابنك هينة يا "سمبو" ، الوباء أخذ روحه ومات كملاك ، حرمت من نظرة عيون أمه وعشت أسير ذكراها الطيبة ، لكنك لم تمت ، فلماذا تحبس روحك؟ انطلق ولا تخف من أحد ، اهزم اليأس وتحرر ".

غبت عن الوعى وخفق قلبي وسمعت صوت "الأمين زكي" يصرخ قائلاً : " يا دكتور " ، فعدت من غيبوبتى ودخل بروحى إحساس بأن "زكي" يتبع طريقه ، ورغم عمله بجهاز الأمن لكى علاقتنا توطدت ، كأننا نحمل شيئًا غامضًا بقلوبنا وننتظر تدبير القدر.

تغيرت علاقتي بـ"ثريا" التي خففت وحدتي بعد رحيل وليدى ، وشعرت بأنها تحمل لـ"مينا" كل الحب ، زارتنى كثيرًا وتحدثت عنه كنبْى رغم ارتداده.

الآن تعود لذاكرتي كل أحداث الماضى ، عملت بكل المهن بعد وفاة أمي وأبي وتركي وحيدًا ، تمكنتُ رغم الصعاب من النجاح في الطب وعينتني الحكومة في حي الفواحش لمعالجة أمراضهم المستعصية.

تزوجتُ من الممرضة التي ضاجعتنى على الأسرة وفى الطرقات وأنجبت منها ولدي في ليلة مقمرة ، وعاش بيننا كعصفور ، وأعاد لأرواحنا بهجة الحياة وجمالها ، ودون وداعٍ رحلت المرأة التى نمت آمنًا في أحضانها إلى مثواها الأخير.

عشت بجوار طفلها كخادم أجهز فطوره وأغسل ملابسه آملًا في استكمال حياته وتأمينها علنى أوفى دين الراحلة.

وعند انتشار الوباء الذي قتل آلاف البشر ، عزلته بالمنزل وخبأته في حجرة معقمة ، لكن الداء والدواء ملك الرازق الذى رزقني بهو أخذه منى لاستكمال حياتي دون ونيس .

ولولا علاقاتي بنساء الحي اللاتى أرسلتهن "ثريا" لتفحمت مشاعرى ، يوم وفاته مات قلبي من الجفاف ، وعندما قابلني "مينا" نبتت مشاعرى من جديد وعادت روحى إلى براءتها.

نعم بوجهه ومِيض ينقله لمن حوله ويجعلهم أسرى رضا داخلي لا يفارق حياتهم ، بمجرد نظرة من عيونه تهرب الأرواح الميتة البغيضة من الوجود.

طارده أخوه وزوجته وابنه سنوات ، وكلما ضاق عليه الخناق عاد لأخبئه بمنزلي أو في السرداب السرى.

يخرج وسط الليل يبحث عن أبنائه محاولا منع الشر والأذى عنهم ، وبعد مقتل "بقدونس" ومغادرته الحي خفت عليه ، في هذه الأثناء أصبحت "ثريا" و"زكي" ضيفين دائمين على المصحة ، يناقشان معي ما يجري بالحي والمصير المرعب الذي ينتظر الجميع.

حاولنا إعادة الخير الذي اقتلعه القس والشيخ بمساعدة البلطجي ورجاله الوافدين من جهنم ، لكن لا فائدة فجرائمهم المتزايدة قضت على طموحاتنا وأحلامنا بالسلام.

وفي ليلة كئيبة كاد اليأس يهزمنا ويظلم حياتنا ، وفوجئنا بدخول المسكين مؤكدًا انتصارنا بشرط إيماننا بالحب.

كان الأمل معقودًا على تعظيم دور "جهاد" في تعليم الأطفال وعلاقات "لولا" بالجميع لإعادة تأهيلهم ، لكن الأشرار قرؤوا رسالتنا فحبسوهم مع آخرين.

وحين نظرنا حولنا ، ولم نجد إلا أطفال "جهاد" التى علمتهم العطاء غيرنا خططنا ، وعملنا بهدوء حتي يكبروا ، لم نكن نضمن نجاحنا ، لكن "مينا" نظر بسخرية قائلاً : " مفيش أدامكم بدائل ، فالشر يمكنه حرق كل شيء ، ولو كانت هناك ذرة خير أو أمل في الدنيا ، فسوف تكللون بالنجاح ، لا يهم الوقت أو الخسارة ، فأمام النور يمكنكم تحمل مر السنين ".

قضت الخطة التي وضعناها برحيل "ثريا" مع "مريم" بنت "جهاد" إلى حي جهنم لتستكمل تربيتها في سلام ، وتهريب "ملاك" بن "مينا" إلى قريته ، وتابعنا رغم المصاعب علاج الأطفال واستكمال تأهيلهم الذى بدأته "جهاد" لإنارة قلوبهم وملئها بالعزيمة.

زرعنا "الأمين زكي" وسط العصابات ليتبوأ مسؤولية الجهاز الذي يعرف خبايا أسراره ، وخدعنا البلطجي ليخفي "مينا" بنفسه في سرداب المستشفي الذي كانوا يدفنون فيه آلاف المصابين بالفيرس وهم أحياء.

استمرت خطتنا سنوات ندرب الأطفال حتي أصبحوا شبانًا وفتياتٍ ، علمناهم معنى الأمل والخلاص حكينا كل ما جري في الحي ، لم نترك إشارة شريرة أو طيبة ملقاة في أحد الأركان إلا وبلغناهم من وضعها؟ وكيف نمت لتنتج الغل أو السلام؟ شرحنا كيفية استيلاء الكفرة على حياتهم ، وكشفنا دور "مينا" في تنبيهنا إلى اضمحلال حياتنا وجمال رؤية النور داخل أعماقنا.

وقررنا إعلان المواجهة لاجتثاث الحقد من أرواحهم وحرقه ، لا أستطيع أن أحكي تفاصيل الأيام والسنوات الطويلة التي تحملنها معًا ، لكن تشجيع الفتيات والفتيان الصغار علي الثقة بإعادة البناء رغم هول الخراب جعلنا نواصل مسيرتنا غير عابئين بالنتائج ، وحين عاد "ملاك" و"مريم" و"ثومة" وسمعنا أخبار بطولاتهم تأكدنا بأنه يمكن تنظيف الدنيا من الأشرار والخرابات.

انطلقنا وسط الجموع مؤمنين بنصرنا وحاربنا شهورًا لنجتث آثارهم ، ومات الآلاف منهم ووضعنا الباقى فى السجن الملحق بالمستشفي لعلاجهم ، وظهرت المشكلة الحقيقية ... إذ كيف يمكن بناء هذا الحي مرة أخرى؟

استولينا على المباني المظلمة وهدمنا الأسوار والجسر وردمنا المصارف وبركة المخروبة وحرقنا خيام جهنم ، لكن عملية البناء كانت مستحيلة ، ولولا روح "ثريا" و"مينا" و"زكى" الذين أعادوا زراعة بذور الخير في نفوس الفتيات والصبية ما كان لهذا الحي أية ذكرى فى تاريخ البشر.

سلمنا "ملاك" و"مريم" مسؤولية إعادة زراعة الأشجار والزهور وترميم المبانى ، قسموا الفتيات إلي فرق لإزالة أكوام الروث والخرابات التي تمتلئ ببقايا الجثث ، وشيدوا مقبرة ووضعوا فيها كل الرمم وكتبوا عليها " ترب المساكين".

تحمل فتيان آخرون إعادة تشغيل مصنع الأدوية والكهرباء لإنتاج النور وملء المنازل بالدفء والصحة ، وتخصص آخرون في فتح المشاغل والورش وزارعة الخرابات والشوارع وفوق أسطح المنازل والبلكونات لإنتاج البطاطا والخضر والقمح والذرة.

عندما شاهدت وجوه الصبايا النضرة المملوء بكارة وبهجة وهن ينطلقن بكل جسارة لإزالة الخراب شعرت بنشوة وسعادة لا توصف وآمنت بأن روح العالم مازالت بخير.

تفرغت مع "زكى" لتطهير نوايا الأشرار المتبقيين وصقور جهنم وغربانها ، أدخلناهم في تمارين صعبة ، وسقيناهم المر وحبسناهم في أوانٍ زجاجية ليفرقوا بين النور والظلام والخير والشر لتطهير أرواحهم التي انطمس منها أى أثر للرضا.

كنا ندرك أن أرواحهم رغم السواد المنتشر مازالت تحوى نقطة بيضاء ، دربناهم علي التسامح والتصالح مع الظلام ، لم نأمل فى البداية بتحولهم لملائكة ، ولكننا كنا على يقين بإرادتهم التى ستتعايش مع أحلامنا كى نعيد إحساسهم بأنهم مثل باقى البشر الصالحين.

بنينا خطتنا علي تعليمهم قيمة العطاء ، فالنفس البشرية لا يمكن أن تنال الرضا دون تقديم الخير ، فتحنا ورشًا لينتجوا أجمل الهدايا والملابس وأسرة الأطفال ، وعلى الرغم من الشر الذي ملأ حياتهم ، لكن بعضهم تفوق علي نفسه وتحول إلى مؤمن بالرسالة والدين الجديد ، فأخرجناهم من السجن ليشاركونا العمل لزرع الحي الجديد ببذور الحب.

لا أدري الآن إن كان ما حدث حقيقيًا أم خيالًا ، فبعد وفاة ابني فقدت طعم الحياة ، ولم أتصور مشاركة الأخيار في إعادة الأمل إلى النفوس ، لكن الرسالة التي بثها المرتد في أعماقنا حولتنا لملائكته لا نهاب الموت.

نعم نحمل الخير ويمكننا زراعته في أعماق الآخرين وإنتاج البهجة لتنعم البشرية فى السعادة.

ورغم ذلك كان "سوسة" وفرقته يقفون في الجانب الآخر ، بالمرصاد ليخربوا عملنا ، تمكن المجرم من الإغارة على الحي لحرق الزرع ، واستطاع بدعم عصابته الجديدة تهريب مختار وسعد ليشكلا رؤوس الشر الجدد ، ولم يكن لهما هدف سوى الانتقام منا وحرق روح المحبة التى نمت بيننا.

حين كنت أمر بالمستشفي أتفقد أحوال الأشرار الذين تمكن "زكى" بمساعدتي على ترويضهم أحس بالسلام يملأ روحي ، نعم يمكننا ملء الدنيا بالنور رغم كل المآسي التى اعترضت رحلتنا ، يمكننا أن نفرح وندفئ أرواح من حولنا ليستمتعوا بجمال الحياة ونعمتها.

فى تلك الليلة التى كنت أنوى مفاتحة "ثريا" بأمر زواجنا بعد تفرغها لتعليم الفتيات في بيت الحب فنون العشق شاهدت "زكى" نهاية العنبر فناديت عليه قائلاً : " الليلة هنتقابل ببيت الحب " ، فى تلك اللحظة دخلت رصاصة الأوباش قلبى ، جرى "زكي" ناحيتي وأصدر أمره

بغلق البوابات ، أخذني بحضنه وبكي قائلاً : " أرجوك متمتش هتتجوزها وتخلفوا عيال يعمروا الأرض ، مش مهم العمر ولا القسوة التي ملأت حياتك ، مش مهم المآسي التي شوفتها ، أرجوك متسبناش قبل رؤية زرعك الأخضر ".

ابتسمتُ فخورًا بنهايتى ، لم أكن أرغب في شيء إلا مقابله "ثريا" كى أشكرها على ما قدمته لحياتى ، كنت سعيدًا لأني ذاهب أخيرًا لرؤية ابني وزوجتي ، ودعتهم جميعا وسألتهم أن يحافظوا على رمز الخير "مينا المسكين".

" أمل "

قاسيتُ دون ذنبٍ اقترفته ، وجردتنى الدنيا من الأحاسيس ، وحرمتنى التمتع من حضن أبى وأمى وحبيبتى ، ورفضتُ استقرارى وعيشى في سلام.

فيارب ، هل يجب مرور جميع البشر بمراحل اليأس والفشل قبل رحيلهم؟ أم أنك تستهدف بعضنا لتبرهن على جبروتك؟! أتجرب نظرياتك فى عبيد مملكتك لتنفذ خططك المسجلة في لوحك المحفوظ بدقة وإتقان؟

لاحقتنى هذه التساؤلات أثناء جلوسى أمام المنزل متأملا أسراب الطيور التى تغرد من حولى وتلتقط الحب وتعود لأعشاشها أعالى الأشجار ، جال بخاطرى أمنية صغيرة وقلتها لنفسى بصوت عالٍ : " لو يحولنى الله إلى يمامة! "

نعم ليس في الحياة شىء يستحق كل هذا المرار ، ومع ذلك يتصارع الجميع ويتكالبون كالجراد ليستحوذوا على كل شىء دون سقف أو رادع.

أعترف اليوم بخطيئتى ، لأننى تحديتُ مشيئة الله ، لم يكن هناك داعٍ للمقاومة ، نعم القدر والمكتوب لا فرار من أحكامه.

عدت بعد عشرات السنين إلى مكان ولادتى لأعيش فى منزل أبى وسط الزرع والأرض المحاطة بالمبانى والمحلات ، لكن رائحة أمى مازالت موجودة ، ويكفينى النوم مع عبقها الباقى من عمرى .

طاردنى الفشل خلال الرحلة لكننى سعيد بالنهاية ، أقرأ طوال النهار في الرباعيات والخماسيات ، وأجلس أمام أوراقى في الليل باحثًا عن مصير المسكين ، ولا أعرف مصدر سعادتى أثناء تصفحى كل ليلة قصته الطويلة ، غير مهتم بمصيره.

قلت لنفسى سعيدًا بسرد تاريخه ومتمنيًا ظهوره لمدِّي بالأمل : " لا يهم المرتد ثورة أهل الحى بقيادة مريم وثومة لترميم الأرواح الخربانة ، فيكفيه أنه لم ييأس رغم خيانة زوجته وابنه وأخيه ، لا يهم ماضيه أو حاضره لأنه تمكن رغم الملاحقات والأذى أن يثير انتباه جيرانه ويفجر طاقات الحب في حى الغجر ليفكروا في خطاياهم ويقاوموا ليستعيدوا إنسانيتهم ".

أعتقد أننى لو قابلته خارج الزمان ، فلن يحزن على نتائج ارتداده ، فيكفيه زرع الأمل بداخلهم ليتساءلوا عن جدوى إضاعة عمرهم في الألم.

رغم الظلم الذى لاقاه وخنق روحه داخل الأسوار ، لكنه لم يتوانَ عن مقاومة الشر لتحقيق أمله ، ومع ذلك فمازال الغل موجودًا بعد هروب "سوسة" و "مختار" و"سعد" ومهاجمتهم فرق الطيبين التى تزرع الأشجار والزهور فى الخرابات وعلى أسطح المنازل.

لا يهمنى الآن صراع "مينا" وحياة الغجر الجديدة ، لأننى أصحو كل يوم أستمتع بقراءتي وأكتشف مجددًا خلايا ولون الزرع الأخضر الذى يحيط بالمنزل ، أنظر إلى الأشجار التى مازالت باقية وأستمتع بصوت العصافير والحمام واليمام الذى صنع من فروعها المتشابكة أعشاشًا لينام عليها ليلا بعد رحلة النهار.

ابتهجتُ بخدمة الحمارة التى تركها عمي ومازالت حية وأعتبر نفسى مسئولًا عن إطعامها ، ويسعدنى أوقاتًا كثيرة أن أفك قيودها وأتركها ترعى وسط الزريبة التى أصبحت كالخرابة بعد ذبح جاموسته يوم أربعينه.

أدخل حجرتى كل ليلة وأتحسس أثاث كتب وملابس حبيبتى ، أسترجع أحلامى بالعيش الهانئ في حضن امرأة وهبت حياتها لإسعادى.

تحدثتُ مع "كريم" لفتح مركز لتثقيف الأطفال والصبايا بإحدى حجرات المنزل ، ورغم اندهاشه لقرارى لكنه ساعدنى على توضيب الزريبة لتتحول إلى مرفأ للعلم ، ورغم امتعاض "مسعود" و"على" لكنهما لم يعترضا ، كأنهما يقولان لأنفسهما : " اتركه يفعل ما يشاء في أيامه الأخيرة ".

أحضر "كريم" طلابه ليعيدوا دهن الزريبة والبيت ، اخترت اللون الأبيض دون وعى ليصبح المنزل من الداخل والخارج أشبه بباقة نور وسط المبانى الخرسانية المرتفعة.

اشترى معى بعض الكراسى والمكتبات والترابيزات ورافقنى حتى المدينة القريبة للاتفاق مع دور النشر لمدنا بالكتب والروايات.

رغم نظرة "مسعود" الساخرة لمشروعى ، لكنه تبرع بعشرة كمبيوترات لتدريب الأطفال على استخدام النت وتعليمهم طرق ووسائل العيش الجديدة.

بعد مرور الوقت سعد إخوتى وزوجاتهم بمشروعى لأن أولادهم أصبحوا ضيوفًا دائمين على عمهم بالدار ، أحضروا زملاءهم من المدارس كى يستعيروا الكتب ويستخدموا شبكة التواصل الاجتماعى فترات طويلة.

انهمرتْ السعادة داخل روحى وأنا أرى البيت الجديد يموج بعشرات الأطفال والفتيات والصبية ، وشعرتُ برضا السماء لأنها وهبتنى كل هؤلاء الأولاد قبل رحيلى من الحياة.

أصبح لحياتى طعم الألفة بعد موافقة إخوتى على فتح حضانة بحجرات المنزل وتشغيلها بمساعدة "بسمة" بنت "مسعود" التى أصبحت بمثابة ممرضة لعمها العجوز التى تناوله علاجه وطعامه بحب لم يحسه قلبى منذ وفاة أمي.

استخدمنا سرير "حياة" لنوم أطفال الحضانة ، وأخيرًا أصبح لأثاثها دور وفائدة ، كنت سعيدًا بوجود شيء منها فى حياتى.

خلال الصباح يمتلئ المنزل بالأطفال التى تفوح ألوان عيونهم وملابسهم وحقائبهم المتنوعة ببريق الأمل فيعيدوننى مرة أخرى إلى بكارة طفولتى ، وأتذكر دفء صوت جدتى وهى تلفنى بجرامها الصوف وتأخذنى بحضنها كفراخ الطير.

دخل على قلبى حب من نوع آخر تجاه محبوبتى "بسمة" ، الجميع أكد بامتلاء قلبها بروح أمى ، ومع ذلك كانت نظره واحدة من عيونها كفيلة بعودة السلام إلى أعماقى.

اهتمتْ بحياتى وقرأتْ أهم الروايات التى انتحر كتابها حزنًا على أحوالنا ، وراعينا الصبية والأطفال لنطور أحاسيسهم بجمال الحياة ، وعلمناهم بدأب كيفية حماية أرواحهم ومشاعرهم من غبار الشر وطرق تطهير نفوسهم وتنظيفها المستمر لتستقبل بذور الحب كل يوم.

ساعدتنى على فتح الحجرة المتبقية فى الدور الثاني كمرفأ لتعليم الموسيقى ، أدخلتْ النور في قلبى وبدأت أسامح أمى لأن قرارها بالزواج من عمى أنتج هذه الفتاة الطيبة.

ورغم ذلك لم ينس "كريم" الحمارة ، جهز له عشة فى نهاية الحقل ، ووضع بمدودها الفول والعلف وفاءً لذكرى والده.

خلال هذه الفترة لم يكن عندى وقت لتذكر حى الغجر أو عصابات جهنم ، نسيتُ نفسى بين الأنشطة المتزايدة للدار ، خاصة بعد موافقة مجلس القرية التى تحولت إلى مدينة بمدّنا

بشاشة سينما صغيرة ودعمنا لتكوين فرقة مسرحية لتتحول الدار إلى منارة وسط البلدة التى لم تعد تعرف سوى لغة التجارة.

تحول البيت بأدواره الثلاثة إلى خليه نحل ، لم يتبق لنومى في النهاية سوى حجرة فوق السطوح ، استخدمتها أمى لتخزين محصول القمح وتربية البط والدجاج ، ومع ذلك أتاح جلوسى فى الفضاء كل ليلة مراقبة النجوم والسماء ومحادثة القمر.

خلال أوقات الليل أجلس أمام الحجرة متذكرًا رحلتى التى طالت وتمنيت من كل قلبى الوصول للنهاية ، لكن حياة "مينا" لم تكتمل ويجب إيجاد الوقت بأية طريقة لإنهائها.

كانت الدار تعمل على أكمل وجه ، وتمكنتُ رغم الفترة البسيطة الترتيب مع الفتيان والفتيات بتحمل مسئولية الأقسام التى ازدادت وكبرت ، وأصبح منزل "زين" يتمتع بسمعة طيبة وسط الفلاحين الذين تحولوا إلى تجار وأطباء وحرفيين وعمال يومية وبلطجية ، وعندما جاءتنى حبيبتى في الحلم باكية لتوقفى عن الكتابة قررت أن آخذ استراحة لأنهى عملى الذى طال انتظاره.

لكن التحدى الذى واجهنى في ظل انشغالى طوال النهار هو اقتناص الوقت لإعادة قراءة كل الأحداث السابقة ، جلست شهورًا طويلة طوال الليل فوق السطوح أتحدث مع "مينا" و"ثريا" و"سمبو" و"سوستة" و"سعد" و"مختار" وغيرهم عن حسم المعركة وانتهاء الأحداث.

سجلت عشرات المرات أصواتهم ورغباتهم وتراجعهم ومزقتها لإرضاء غرورهم ، لكنهم اتفقوا على تسجيل حياتهم كما هى دون تغيير ، حينذاك انهمكت في العمل لأسجل صراعاتهم وشعاع عيونهم علّنى أحكى ولو لمرة واحدة عن أمنيات أبطالى بصدق.

اجتمعتُ بالمشرفين وطلبتُ منهم أجازة قصيرة ، ومررت على إخوتى في منازلهم وودعتهم على أمل العودة في أقرب وقت ، تحججت بضرورة الرحيل لإنهاء بعض الأعمال المرتبطة بالدار ، عندما شاهدت اللافتة المعلقة فوق سطح المنزل التى رسمتها "بسمة" وعلقتها فى غفلة من الزمن "دار زين الثقافى" أحسست بأن أبى مازال حيا.

لم يهتموا كثيرًا بقرارى ، وأصروا على إرسال أحد أبنائهم معى ، رفضتُ حاملاً حقيبتى القديمة التى تحتضن قصتى وغادرت في صمت.

" ثومة "

خرجتُ كالمجنونة من بيت ترميم المشاعر الذى تديره "جهاد" و "ثريا" لأستقبل جثته التى غادرت دون وداع ، ليلة رحيله كنا ننوى الذهاب إلى المقابر لزيارة أمى و"حسن" ، أكد تقصيره معهما وظل يعاتب نفسه ويبكى على فقدهما ويذكرنى بليالى الحب فى الزمن البعيد..

عندما كان يتناول عشاءه معنا آخر الليل وتنطلق روحى للسماء لتذوب في السعادة ، كان يمسح دموعى ويأخذنا جميعًا بأحضانه كأنه يعرف المستقبل قائلاً : " خايف عليكوا يا ولاد ".

يعود من المقهى الذى يجاور البيت حاملا كيس الفاكهة بوجهه البشوش ويأكل معنا عشاءه وينام وسط السرير بجوارى فأشعر كأننى أمتلك العالم.

اليوم تمكن الهباشون أنصار "الأعور" من قتله ، وتمكنوا من الفرار كعادة الجبناء ، أسسوا بجوار المدينة البعيدة مأوى للأشرار ، ولم ينسوا ثأرهم معنا فعاودوا غارتهم كالأشباح ليحرقوا الزرع ويهدموا أسوار المستشفى ومحطة الكهرباء ويغتالوا قديسنا.

فعلوها بخسة ودناءة ، راقبوا تحركات أبى ولحظة رجوعه كل يوم إلى منامه ، وفجروا سريره متصورين انتصارهم على الخير بعد رحيل البطل الذى هز عروشهم الخاوية.

أتذكر اليوم ليلةَ مقتلِ حسن وبكائه الطويل ونومه بجوار جثته ستة ليالٍ صامتًا ملكومًا غير عابئ بأحد ، رافضًا تناول الطعام والمياه ، ثم يقظته فى اليوم السابع ليدفن وليده ، يومها عاد الأمل إلى روحى وهو يطبطب على وجه أمى وينظر فى قلبى ونحن راحلون إلى جهنم ، استمر حيًا وسط الفواحش والخونة على أمل إعادة النور والسلام إلى حوارينا من جديد.

رغم المصائب التى بُليتُ بها لكن وجوده كان كافيًا لتعويضى عن كل شىء ، أحس اليوم بالغرق في بحر السواد ، لم تبق في أعماقى إلا صورته التى تذكرنى بمنزلنا المفقود وحياتنا السعيدة ، عشت بحى جهنم سنوات بحماية أمى و "ثريا" وخبأتنى في عيونهما ولم تسمحا لأحد بمرافقتى سوى "مريم" التى علمتنى الحذر والعشق.

ليلة جنون صبية جهنم ودخولهم خيمتنا ليغتصبوا النساء ، خبأتنى أمى في صندوق ملابسها ليغتصبها الخونة ويفجعوا فرجها ويقطعوا نهديها بأسنانهم ، صرختُ صامتة كى لا

أحس أنينها ، وحين انتهوا منها خرجت من الصندوق فوجدت جثتها المغتصبة الغارقة فى الدماء تفرفر كالذبيحة على الأرض.

فى تلك اللحظة أطلق الشياطين نداء توزيع المياه على الأهالى ، أسرعتُ فى الحوارى لآخذ نصيبنا وأروى عطشها وأطيِّب جروحها ، فاستوقفنى رئيس جهنم عنوة وأجبرنى صبيانه على خلع ملابسى ، فوجدتها بجوارى تغطى عورتى من عيونهم الجاحدة غير عابئة بالألم الذى مزق جسدها ، وألقت الأمانة في قلبى لاستكمال الرسالة ورحلت.

حولنى المشهد إلى فتاة أخرى وبدأت مشاركة "مريم" و"ثريا" اجتماعاتهما السرية لأسمع حكايات الحى ومعارك رجاله ونسائه المستمرة من أجل الخلاص.

حكت "ثريا" عن بطولات أبى و"سمبو" و"مينا" كأنهم أساطير.

ولكن ما فائدة كل ذلك الآن ، رحل الأمين عن حياتى وأخذ المعانى الجميلة إلى قبره ، فيارب لماذا خلقتنا ، أترغب في منحى حلاوة الحب والنور ثم تسحب مذاقه من قلبى بجفاء وتتركنى حزينة يائسة كأننى بنت خطيئة؟

الجميع أحاطنى بحبه وحملوا جثته مع الآخرين معى وغسلوه بدموعهم ، لم ينطقوا بكلمة واحدة ، لكن فرق الموسيقى والمنشدين بكل الأركان غردتْ فى السماء أغانى الرحيل وبكت دموع الحزن والحسرة على المفقودين الذين رحلوا دون وداع ، بعد عودتى من المدافن دعكت "جهاد" و"ثريا" روحى بمعجون الصبر الذى كواهما عبر السنين الطويلة ، آملين فى تخفيف بلوتى .

أخذاني إلى بيت ترميم المشاعر الذى يضم الكنيسة والمسجد والمعبد والسينما والمسرح والمكتبة المملوءة بالكتب والرسومات كى يعالجا جروحى .

أتذكر يوم وضع حجر الأثاث "بيت الرب" والموسيقى المختلطة التى عزفت بأركانه طوال الوقت ، ويكفى لسماعها العودة لبكارة الماضى والعيش فى سعادة .

طلينا حوائطه باللون الأبيض وفتحنا المشاغل والورش لنصنع الملابس والمفارش والسجاد والأسرة ولعب الأطفال فى براحة الواسع.

عندما تدخله تنطلق روحك وسط الألوان والموسيقى والرسومات التى تسحرك فتندمج في الروح العظمى المملوءة بالرضا والسلام التى تبثها وجوه الرواد الذين يغردون حولك ليمتلئ قلبك بمشاعر جياشة تدفعك للعمل والابتكار والمشاركة.

لا يكفي وصف نوره كى تعرفوا حجم الحب والإيمان الذى أزال الخراب والدمار من الحى وحول أبناءه إلى مسالمين آمنين.

مرة أخرى تأخذنى "جهاد" و "ثريا" إلى البيت العتيق الذى شيداه بأرواح الطاهرين القديسين الذين فقدناهم فى حروبنا الطويلة لتعالجنى من هلاوس الماضى الذى فجر أعماقى وأصرا لأعيش معهما والتظلل بالنور والعشق الإلهى الذى يشفى القلوب.

وفى صباح يوم مشمس خرجت إلى حديقة البستان أتلمس دفء الشمس ، فحلقت العصافير فوقى أينما ذهبت ، وشاهدنى الجميع مندهشين من سر ارتباطهم بهالتى.

أعادنى الأبرار إلى أمام باب بيت الرب وقالوا اختارى بنفسك حياتك ، ولا تحكى لأحد عن شيء ، فقط تأملى حال الجميع وراقبى عيونهم ثم قررى ما تشائين.

حين وضعت قدمى على مدخل البيت ملأتنى روح "سوسو" الكوافيرة التى كانت تود أمى وتملأ منزلنا بالبهجة والنور ، احتضنتنى قائلة : " ميهمكش يا ثومة " ، تذكرت علاقاتها بـ "بقدونس" القهوجى و"سويلم" بائع الفول الذى يعرف الجميع طريقة حياتهم الهمجية ، ورغم ذلك كانت تعلم نساء البيوت فن الحب والنظافة وتطهير أجسادهن قبل ممارسة العشق تهندس ملابسهن وقمصانهن وشعورهن كعالمة فى شئون العشق.

بعد رحيل عشاقها ، تحولتْ إلى قديسة ، تقربتْ من تمرجى المستشفى وتزوجته وعاشت أيامها الأخيرة في كنفه ، كأنها رمز للخير ، كنت أسأل "ثريا" عن سبب عشقها للرجال أمثال "بقدونس" و"سويلم" ، والتمرجى المنتمين لأصول ريفية ، رغم أنها بنت مدينة ولم تر في حياتها أى زرع أخضر ولم تشم رائحة براز المواشى أو تسرح بالأبقار فى الحقول أو تتذوق طعم اللبن الحليب الطازج ، اندهشت من أسئلتى ولم تجبنى .

ليلة مقتلها شاهدتها في الحلم تقهقه بسعادة بصوتها الخليع وتحضننى وتأخذنى إلى نهر طويل مملوء بمياه صافية ، تعرَّت معى على الشاطىء ونزلنا فى مياهه الدافئة وأزالت عنى كل الأوساخ وتركتنى عارية دون وداع.

عندما دخلتُ قسم المفروشات بالبيت المقدس ، وسمعتُ ضحكات البنات وترحيبهن بوجودى اقشعر جسدى ، فكيف ينتجن ملابس ناعمة من ذيول الخيل ، وتذكرت أحلامى البائسة أثناء حياتى بجهنم ، كنت أعيش فى قرية معزولة يتميز رجالها بوجوههم الشبيهة بالأحصنة والبغال ، ويلفون كل ليلة حولى ويزومون فتتغير وجوههم إلى نمور وذئاب ، ويرتمون فوقى ويعاشروننى حول نارٍ مشتعلة بنشوة وفجر ، ومع ذلك لم أتمكن ولو لمرة واحدة من القذف معهم أو الابتلال بمياههم الدافقة.

كانوا يدخلون جماعات على سريرى المنصوب في الفضاء ويفتكون بجسدى وفرجى وعيونى ، ومع ذلك لم يتمكن فرجى من الانقباض أو الاندماج مع حيواناتهم المنوية التى أغرقت سريري ، وعندما حكيت حلمى لـ "ثريا" مؤكدة أننى عاقر ولا يمكننى الإنجاب ، بكت قائلة : " أنت ست الملايكة ومش ممكن لروح طاهرة معاشرة البشر الأوساخ ".

ناولنى بعض الصبية خبزًا مصنوعًا من روح المحبة تذوقته فذابت عينى فى بحر العشق وانتظرت واقفة أمام المحراب زمنًا طويلا كى أنال حصتى من السلام الذى يعمر الكون ، وفى لحظة مفقودة غرقت روحى فى نور الرب.

أخذتنى قدمى إلى الصبايا المتفتحات في قسم اللهو ، التففن حول "مريم" لتصنع لهن من طين الأرض تماثيل لأبائهن وأمهاتهن وأجدادهن الذين دفعوا حياتهم ثمنًا لاستعادة بكارتهن ، وقتها شعرت بالبكاء يملأ عينى لتذكرى قرة عينى وأخى "حسن" الغالى الذى أدى موته إلى تغيير مصيرنا.

شاهدت صورة أبى تحوم حولى ، ويسحبنى مبتسمًا إلى صالة الموسيقى التى كانت تصدح بألحان غريبة مملوءة بالقوة رغم شجنها ، ووضع يديه في يدى ورقص معى وهمس في أذنى كمولودة جديدة قائلا : " باب السعادة مفتوح ، ارقصى ، حلّقى بروحك لتذوب فى رحيق الأمل ".

رغم علاقتى الطيبة بـ"مريم" واعتبارها قلب الحى النابض ومصدر بهجته ، لكننى سعدت بخبر ارتباطها بـ"ملاك" ، الجميع أكد أن والده الذى لا يعرف أحد حتى الآن دينه ساهم في إزالة الحواجز ولم يهتم أحد بدياناتهم القديمة لأن بيت ترميم المشاعر الذى سيقيمون فيه حفل الزفاف يهدم تلك الجسور ويتحول الجميع بداخله إلى ملائكة.

عندما وصلت إلى حجرة "ثريا" و"جهاد" آخر النهار بعد طوافى ساعاتٍ طويلة وسط الأقسام وتناولى المشروبات والأطعمة التى يقدمها الخدام للزائرين احتضنتهما وبكيت قائلة : " هعيش ازاى وأمد روح البشر بالسلام؟ "

رقونى ووضعن على رأسى تاج المحبة وفوضونى كمسئولة عن إدارة بيت الرب.

قالت "جهاد" والدموع تملأ مقلتيها : " هيمد الله فى عمرنا علشان تعرفي أسرار بيته وحكاياته ، بصى فى عيون المحيطين وباركيهم بالأمل ونكريهم بالرساله ".

رغم اختفائى داخل جدران البيت وابتعادى عن خطط البناء التى تشارك فيها الجميع ، لكن "مينا" المسكين جاءنى في الليل قائلا : " هيمطروا الحى بوابل من الرصاص متخافيش فهجوم الأشرار لن يكون الأخير ".

وبالفعل تمكن أنصار الظلام من الوصول لبيت ترميم المشاعر وقذفوه بقنابلهم محاولين إعادة الخوف والشر إلى قلوبنا وإفقادنا الأمل.

حاولوا استرجاع أيامهم السوداء بغارات متكررة ، لكن فرقة الحياة بقيادة "ملاك" و"مريم" تمكنت منهم وقتلت معظمهم وفر الباقون كالجرذان خارج مزارعنا التى أنتجت محصولنا الجديد الشبيه بالبرتقال والذى أطلق عليه العباد فى كل البلاد " ثمرة الرضا ".

صدت فرق المقاومة الغارة الأخيرة التى قادها "مختار العجوز" و"سعد" بن "ألطاف" بقيادة "سوستة الأعور" ومنعوا محاولاتهم لهدم الزراعات التى ملأت أسطح منازلنا وسرقة مصنع النور.

كان الخبر السعيد رغم الدمار هو مقتل "مختار" و"الأعور" ، لكن "سعد" تمكن من الهرب مرة أخرى إلى وكر الشر كالفأر ليعيد بناء عصابة الظلام من جديد.

تمكنوا رغم انتصارنا عليهم من اغتيال الأبطال والقديسين ، اغتالوا "جهاد" و"ثريا" و"مينا" ، لم يتركوا لنا أحدًا ، الجميع رحل وغادر حياتنا ، لململنا أشلاءنا وعالجنا المصابين ، وبدأنا من جديد بروح مملوءة بالسلام لإعادة البناء.

رغم جرح "مريم" وفتيات بيت الرب اللائى شاركن المقاومة ، لكنهن تركن أسرَّة العلاج وجئن لمشاركة الجميع لحظة الوداع .

ظل مشهد فراقهم مهيبًا ، الكل شارك في لمس وجوههم ، الكل بكى وهم يهيلون التراب فوق أجسادهم.

حينما عدت إلى بيت الرب وجدت كل الأقسام تتجهز لكتابة حكاية "المرتد" وأنصاره الذين طهروا أرواحنا ، شاهدت وجوهًا نضرة فتية تملأ أقسام المسرح والسينما والنقش لابتكار وإبداع وسائل تمد الناس بقمة الحياة وجمالها.

شاركتْ فتيات مصنع الملابس والتصوير ومصممو البرامج لحظة تخليد رموز الخير في حينا المصاب ، وتجهز زراع الحدائق وعمال المصانع والورش بملء الطرقات بأصيص الورد.

في هذه الليلة جاءتني روح أمي وأبي والدكتور "سمبو" و"مينا واحتضنوني وهم يطيبون قلبي ، جلستُ وسطهم كحورية وهم يتحدثون عن الروح العظمى المملوءة بالخير التي ستسود العالم.

انبرت أمي قائلة : " شايفه سعد قاعد وسط الأشرار ، يرتبون للإغارة على الحي مرة ثانية " ، ضحكوا في وجهي ومسح أبي دموعي و ملَّس الدكتور "سمبو" على رأسي ، ونظر "مينا " في عيني ناقلًا الأمل إلى قلبي قائلا : " متخافيش يا ثومة ، فلسة مريم وملاك وأنصار بيت الرب عايشين " ، ووضع يديه على رأسي ليباركني واستكمل قائلا : " كفاية وجودك لتخلصي العالم من الآثام ".

صحوتُ من نومي حزينة على فراق الأحبة ودخلت الحمام وغسلت وجهي ونظرت لبيت الرب الذي ينضح بكارة ، وكدت أبكي على رحيل الطيبين ، لكن روح "ثريا" زجرتني برقة قائلة : " لا وقت للحزن يا قديسة ".

* سلام *

في الطريق إلى المدينة لم يكن يشغلني سوى الاطمئنان على سلامة عقلى ، استعدتُ خلال سنوات بسيطة إحساسى بطعم الحياة ، وكدت أشعر بنهر البراءة المتدفق فى أعماقى وامتلكت العالم من جديد.

بيومي الأخير بالقرية ، قررت مواجهة الماضى لمعرفة حقيقة وجودى وشفرة إحساسى.

كيف خدعتني المدينة طوال هذا العمر وخلقت معي صراعا مخيفا وتحدتني لأهزمها أو تقهرني؟

عندما أخذت نفس الحجرة في فندق الطلبة ، ونظرت من البلكونة المطلة على الشارع ، لم يسترع انتباهي الزحام الذي ملأ الحي ، ولم أسمع ضجيج الأغاني وصوتها العالى الذى كنت أسد أذني بالقطن فى الماضى كى أتمكن من النوم ، كأن شخصًا آخر لبس جسدى وبدأ فى ممارسة حياة جديدة .

لم يثر انتباهى صراخ السيدات العاريات ذات النهود الضخمة اللاتى يملأن الفندق ويناوشن الزبائن لأخذ أموالهم ، لدرجة أن إحداهن دخلت حجرتي وطلبت عدة جنيهات مقابل غسل ملابسي ، أعطيتها المبلغ واندهشتُ من دفء عيوني التي احتضنت روحها المنطفئة وغادرت فى سلام.

كنت آمل أن أسلم روايتي للناشر كي أرتاح من مطاردة الأبطال الذين يرغبون في الانعتاق والحرية ، كأن إلقاءهم علي الأرصفة أو بأرفف المكتبات سيعيدهم إلى الحياة.

قابلته في الصباح ووقَّع مع عقدًا يقضي بالتزامي بمتابعة الطباعة والتوزيع والمراجعة وكل شيء ، لدرجة أني اعتقدت أن دوره ينحصر في التوقيع على العقد وتزيين الغلاف بشعار مكتبته واسمها على الغلاف.

وقررت العودة للدار والتفرغ لتطويرها ، ومتابعة الأطفال والصبية فى الوقت الباقي من عمري ، نمت ليلتي راضيًا عن قراري ، وتذكرت سعيدًا وجوه الفتيات والصبايا الذين يملأون الحجرات ومدخل الدار بالحياة.

في الليل عادت " حياة " إلى أحلامي وسألتنى وهي تبكي عن أثاثها وملابسها التي تركتها بحوزتى على سبيل الأمانة ، لم تجلس بجوارى ووقفتْ على باب الحجرة وقالت : " اخس عليك يا بن زين ، افتكرتك راجل سيحافظ على وعده وخصوصيتي ، ومع ذلك غفرت لك أرجوك أعد لي كتبى ".

أغلقتِ الباب وخرجتْ دون سماع صوتى ، صحوت من نومى وفتحت الشباك باحثًا عن أثرها ، خرجت من الحجرة ونظرت في الطرقة ، فسألنى العامل الذى يراقب أبواب الحجرات : " عايز حاجة يا أستاذ؟ "

أعادني صوته مرة أخرى إلى يقظتي ، فنطق لساني : " عايز سلامتك " ، ودون تردد لملمت ملابسي في الحقيبة وحاسبته ونزلت متجها لمدينتها البديعة.

امتلأت جوانب الطرق المتجهة إلى منزلها بالمباني السكنية المرتفعة والمصانع والسيارت والأكشاك والبشر الهاربين فوق الأرصفة ، وشعرت بروحي سعيدةً لاكتشافها تغير المكان وآثار بصمات الزمن على الشوارع.

حينما نزلت من الباص لم أتعرف على المدينة التي كانت تمتلئ شوارعها بالأشجار والحدائق ، وسرت حتي المقهي الذي جلست وحيدًا على مقاعده المرصوصة فوق الحشائش الخضراء سنوات دون حزن.

الآن تكتظ حديقته بالزبائن المتنوعين ، ولم يعد هناك ببغاء ينادي على اسمي مرحبًا بوصولى ، وقفتُ متأملا المكان فاقترب النادل وسألني عن طلبي ، فباغته بالسؤال عن زميله الذي كان عمل منذ فترة طويلة بالمقهى ، أعطيته أوصافه واسمه ومكان إقامته القديم ، نظر بريبة ناحيتي قائلا : " المقهى اتباع للاعب الكرة المشهور وتغير اسمه من الحدائق إلى الشباك من سنوات طويلة ".

وأشار إلى اللافتة المضيئة باللون الأحمر فوقنا ، وأعطانى ورقة مغلفة مكتوبًا عليها كل أنواع المشروبات وأسعارها ، اعتذرت عن عدم الجلوس واتجهت إلى محل صديقي الحلاق.

فشلت في العثور على آثار دكانه القديم وجلست على الرصيف مستغربًا وجوه المارة المشقوقة ، وسألت أصحاب المحلات القريبة عن مكانه ، وعرفت أنه مات منذ سنوات داخل

محله ولم يعرف أحد من المارة أو الجيران خبر وفاته إلا بعد مرور عدة أيام ، أشار أحدهم إلى برج عالٍ قائلا : " هدموا المبنى وحولوه لمول كبير بيبيع كل شيء ".

سرتُ بالشوارع غير مندهش من اللافتات المنيرة بالنيون ووجوه البشر المبتئسة وملابسهم الغريبة مقررًا الدخول في الشوارع الجديدة والوصول إلى شقتها.

وحين وصلت إلى بوابة منزلها القديم اكتشفت جمال أعمدة المبنى القوية ، واستعدتُ توازني ودخلت حديقتها المزهرة ، ونظرت لشقتها بالدور الثالث وابتسمت لوجود زرعي وزهوري التي واظبت على ريها كل يوم حتى لا تموت.

تساندت على ترابزين السلم حتى صعدت إلى شقتها ودققت الجرس لأرى وجه المرأة التي روت شقوقي كل هذا العمر ، احتضنتني في صمت وقالت : " أخيرًا " ، رحبت بوجودي ومسحت دموعي وأغلقت الباب.

نظرتْ من تحت نظارتها وقالت بسخريتها المعهودة : " لسة قلبك بينبض رغم الشيب ".

كنت أرغب في اكتشاف ما جري بيننا وسؤالها عن المدينة وأخيها وحي الصمت وبيت الرب ، والمحطات التي مررت بها في رحلتي ورحلتها ، كنت أرغب في فهم هوية الجهة التي قامت باختطافي ، وأفرجوا عني في النهاية دون معرفة مصيري وعلاقاتهم بأطباء المستشفى ، كنت أرغب في الجلوس معها لتفسر كل ما جرى في حياتي وتجيبني هل الأحداث التي جرت في حياتنا حقيقة أم خيالا؟

لكن بمجرد رؤيتها نسيت أسئلتي وعدتُ كالطفل بين أحضانها ، أدارت اللاب على موسيقى "الحدائق" التي أعشقها ودخلت المطبخ وجهزت طعامي المفضل ، الخبز والبطاطس والجبن المدعوك في الطماطم والخضر والسلطات ، وجلسنا نتناول طعامنا كأننا مازلنا نحيا بأروقة المدينة البديعة ولم تفرقنا كل هذه السنين.

أثناء جلوسنا وابتهاجنا الصامت ، قالت بحب : " أخيرا انتهيت من روايتك اللي عذبتك طول السنين اللي فاتت " ، رددت قائلا : " كانت محاولة لفهمك ".

سألتني بسخريتها التي نسيتها قائلة : " وامتى هتبدأ الرواية الجديدة؟ " أدهشني سؤالها لأني قررت منذ أيام التفرغ للدار المملوءة بالفتيان والفتيات الذين تمتلئ أرواحهم بالنور والدفء.

رغم أني قلت في صبر وبلغةَ غريبة : " لم يعد عندي شيء لأكتبه ، انتهى صراعي ، وتحققت أحلامي " ، فنظرتْ في عيوني وقالت كلمتها المعتادة : " خلينا نشوف يا أبن زين "

انتهت

الوراق – عمان – الخرطوم

٢٠١٣-٢٠١٤

عندما نظرت الى وجه أحدهم أشار بغيظ
لأقرأ سؤاله : · وهل تصنع مستقبلهم؟! ·
فوضحت ان حياة الأبطال المتخيلين ليست
حياة حقيقية . وأني اتصورها في ذهني لأعيد
تسجيلها على الورق . لكنهم لم يفهموا معنى
كلامي . كرروا سؤالهم عشرات المرات
محاولين اكتشاف كيف لعقل بشرى أن
يتخيل مستقبل حياة الناس ويختار نهايتهم؟
حاولت الاجابة بمائة طريقة . لكني فشلت
في توضيح الفرق بين الحقيقة والخيال

تصميم الغلاف : رشا عبادة



المحروسة